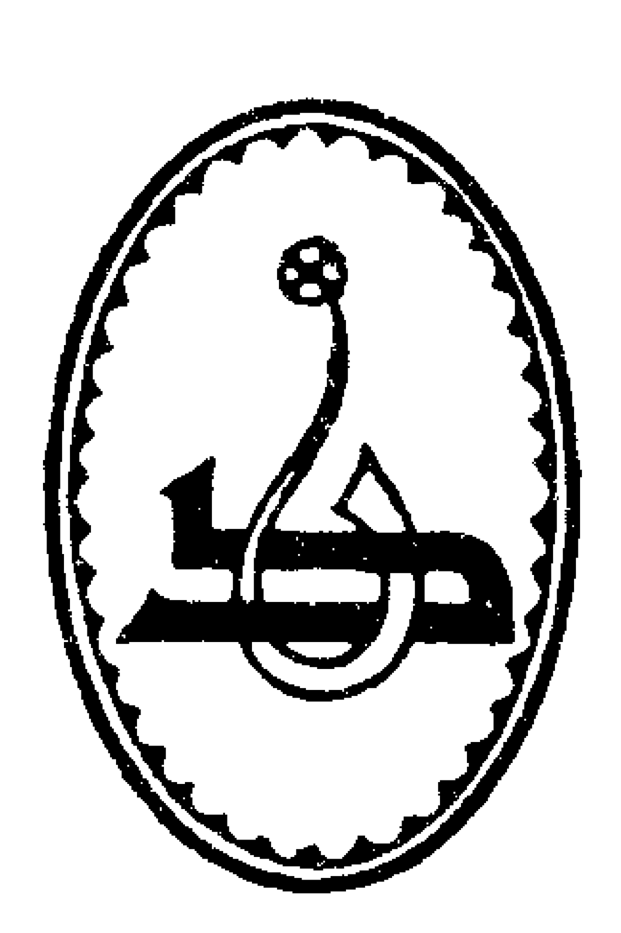

الدين
في مواجهة العلم
تأليف : وحيد الدين خان
ترجمة : ظفر الاسلام خان
مراجعة: عبد الحليم عويس
دار النفائس




الدين
في مواجهة العلم



تمت الترجمة باذن المؤلف

Religion Versus Science
By The Indian Thinker
Waheeduddin khan
Translated To Arabic By
Zafarul Islam Khan



الدين في مواجهة العلم

تأليف
وحيد الدين خان

ترجمة
ظفر الاسلام خان

مراجعة
عبد الحليم عويس

دار النفائس

الطبعة الأولى : ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م

الطبعة الرابعة : ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م

© دار النفائس

بيروت - ص.ب : ١١/٦٣٤٧ - هاتف : ٨١٠١٩٤ - برقياً : دانفايسكو

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المؤلف

تضم هـذه الدراسة التي نقدمها اليوم ، عدة أبواب تدور حول موضوع واحد هو **إثبات حقية الاسلام في ضوء المقاييس الاستدلالية للعلم الحديث ..**

إن المسلم لا يحتاج إلى دليل عقلي حتى يؤمن بالعقائد الإسلاميـــة ، فإن منبع يقينه هو مشاهدته الداخلية ، أو هو ذلـك « الوجدان » الذي يعتبر – في رأيي – أعلى وأرفع من « التصديق العقلي » .

إن اكتشاف الله ليس مماثلاً لاكتشاف الرياضي لبعض المعادلات الرياضية التي لا يمكن الوصول إليها إلا عن طريق العقـــل ، والتي لا تتعدى – في الوقت نفسه – حدود العقل بطبيعتها .

إن اكتشاف الله استجابة لنداء داخلي في الانسان . وعندمـــا يظفر الانسان بذلك القبس من المعرفة يفاجأ بصيرورته جزءاً من كيانه.. فعلاقته بهذه المعرفة ليست علاقة عقلية ، وإنما هي علاقة نفسية . وكل مـا يشكل

جزءاً نفسياً من كيان الانسان لا يحتاج إلى دليل عقلي .

وعصرنا .. هذا الذي غيَّر فيه العلم الكثير من حياة الإنسان ، قد أصبح ينظر فيه — بواسطة العلم كذلك — إلى الطرق الاستدلالية القديمة (التي كان رجال الدين يستخدمونها في الماضي) على أنها طرق باطلة لا أساس لها ، وأصبح الإنسان الحديث يؤمن بأن الطريقة الصحيحة والمعتمدة للاستدلال المقبول هي تلك التي أنتجها التفكير العلمي . ولذلك يطالب العقل الحديث بإخضاع الحقائق الدينية — إذا كانت حقائق صادقة — للمقاييس العلمية الحديثة للاستدلال ، وإلا جاز لهذا العقل الحديث أن يشكّ في صحة حقائق الدين .

وليست هذه مطالبة المنكرين للدين وحدهم ، بل إن كثيراً من المسلمين الراسخي العقيدة يريدون — من باب « **ليطمئن قلبي** » — أن يجدوا جواباً علمياً لكثير من التساؤلات حتى لا يعتريهم شعور بالنقص في صحة عقيدتهم .

ونحن ننشر هذه الدراسة استجابةً لهذه الضرورة ، وقد قسمناها إلى الفصول التالية :

أولاً : **قضية طريقة الاستدلال**

توضيح قضية المقياس الاستدلالي .

ثانياً : **أفكار برتراند راسل**

مناقشة نموذجية لأفكار فيلسوف ملحد معروف .

ثالثاً : **التفسير الميكانيكي للكون**

قصة نهوض وسقوط « قانون التعليل ».

رابعاً: **الدين والعلم**

مناقشة فكرية .

خامساً : **الانسان ذلك المجهول**

إخفاق العلم في اكتشاف حل لقضية الإنسان .

سادساً : **دين العصر الحديث**

مناقشة نظرية « الدين بغير الإله » .

سابعاً : **التفسير الالحادي للدين**

والله وحده الموفق والمعين ..

دلهي : مارس ١٩٧١

المؤلف

الفصل الأول

قضية طريقة الاستدلال

« إذا كان المبدأ هو أن الحقيقة ليست إلا نتائج المشاهدة والتجربة العلمية ، فلن تستقيم قضية معارضي الدين إلا إذا توصلوا ، بالمشاهدة والتجربة نفسها إلى أن الدين في حقيقته النهائية : باطل » . .

« إن موقف علماء الأديان القديمة أشبه برجلٍ يكتب « شيكاً لا رصيد له في المصرف » ، فهم قد صاغوا عباراتٍ لا تكمن وراءها حقائق علمية ، فعبارة « الحقيقة العليا غير المتغيرة » عبارة صحيحة نحوياً ، ولكنها أقرب شيء الى شيك بلا رصيد حقيقي »(١) .

إن آراءً من هـذا النوع تعني أن الدين لا يستند إلى أي أساس ، فهو لا يعدو ان يكون محض عقيدة .. وذلك لأن أمراً ما لا يصبح حقيقةً إلا إذا تمَّ إثباته خارج عـالم العقيدة الداخلي . فمثلاً لو قال أحدنا : « إن المجرات السماوية ليست سحباً مشعّة ، وإنما هي مجموعات لنجوم كثيرة ! » فهذا القول ليس سوى عقيدة ذاتية لصاحبه ، اما إذا جاء بالمنظار المكبِّر ومكَّن الآخرين من مشاهدة النجوم في أمكنة السحب المضيئة فإن هـــذه العقيدة ستصبح حينئذ حقيقةً قابلة لمشاهدة الجميع. أما حقائق الدين فلا يمكن إجراء التجارب عليها في العالم الخارجي . ولهذا يُعتبر الدين مجرد دعوى أو محض عقيدة داخلية لا غير في رأي هؤلاء .

ولنناقش هذا الادعاء .

إن هذا المعيار الاستدلالي الذي سبق ذكره آنفاً يبدو وكأنه شيء واحد

T. R. Miles, Religion and Scientific Qutlook, P. 20. (١)

لبساطته ، ولكن له درجات من الناحية العملية :

أولاً : إن الدرجة الأولى لهذا المعيار هو أن يكون الأمر المراد مشاهدته أو تجربته في متناول يدنا مباشرةً ؛ كمن يقول : « إن الماء يحتوي على كائنات حية » .. وقد يتعجب بعضهم من هذا القول ، ولكن وضع المنظار المكبِّر على قطرة من المـــاء سيؤكد أن عدداً كبيراً من هذه الكائنات الحية موجود — فعلاً — في الماء .

ثانياً : والدرجة الثانية لهذا القياس هو ألا تكون الدعوى قابـــلة كلياً للمشاهدة ، بل يمكن مشاهدة بعض أجزائها . وعلى سبيل المثال : فإن دعوى « الأرض كروية » لا يمكن أن يشاهدها الإنسان في صورتها الكاملة ، إلا أنه يستطيع أن يشاهد أجزاء مختلفة تؤكد حقيقة أن الأرض كروية ، وذلـك كأن تطير عالياً ثم تصوِّر الأرض بكاميرا مزودة بالمنظار المكبِّر، فإن الأرض ستبدو لـك كروية في الصورة تماماً كما يبدو لك القمر . والواضح أن ذلك ليس إلا جزءاً من كرويتها ، وليس هو الصورة الكاملة لها .

ثالثاً : ولكن الحقائق التي ندركها من النوع الثاني من المشاهدات ليست إلا جزءاً بسيطاً من الحقائق المعروفة لنا. فالحقيقة أننا لم نحصل على « حقيقة ذات أهمية » عن طريق هـذا النوع من المشاهدات ، بالرغم من أن دراستنا للكون تؤكد وجود ما لا يحصى من الحقائق ذات الأهمية في هذا الكون .

وهنا يضيف العقل الحديث معياراً جديـداً للاستدلال العلمي يتلخص في أن « **(الاستدلال) يعتبر مقياساً علمياً سليماً إذا شوهدت فيه بعض جوانب التجربة التي تؤكد وجود حقيقة ما ، وذلك بالرغم من عجزنا عن مشاهدة تلك الحقيقة بكامل جوانبها في تلك التجربة** » . ونضرب لذلـــك مثالاً

بالإليكترون الذي لا يخضع للمشاهدة نظراً لتناهي وجوده في الصغر بحيث لا يمكن لمنظار ما مشاهدته ولا يمكن لميزان مـــا وزنه ، ولكن بالرغم من ذلك يعتقد العلماء بأن الإليكترون حقيقة علمية. فما السرُّ في ذلك؟ والإجابة هي أن الإليكترون مع أنه لا يمكن رؤيته، إلا أن له آثاراً Effects نشاهدها في صورة تجارب قابـلة للتكرار والإعادة ؛ ولا يمكن تفسير تلك التجارب إلا بأن نسلـِّم بأن هنالك نظاماً إليكترونياً ؛ فالإليكترون في ذاته فرضٌ ، إلا أنه يستند الى تجربة غير مباشرة ، ولذلك يسلـِّم العلمُ بوجوده .

وهذه الإضافة الثالثة في مقاييس الاستدلال هي التي مكـّنتْنا من الوصول الىحقائق ذاتأهمية عميقة نسميها اليوم: **علم الطبيعة الجديدة** أو **علم الفضاء.**

رابعاً : لكن المشاهدات أكدت أنهذا المقياس الثالث ليس هو الأخير، فكل الحقائق التي نتوصل إليهـــا بواسطته ليست إلا حقائق تكنيكية Technical Facts ، على الرغم من أن سعة الكون تتعدى هـــذه الحقائق التكنيكية الفنية ؛ **فالواقع أن الحقائق التي لهـا مغزى أهم – بالنسبة لنا – تبدأ حيث تنتهي الحقائق التكنيكية** . وعلى سبيل المثال ، فإن دراسة حياة الإنسان وأعضاء جسمه تكشف لنا حقائق كثيرة تنطوي على مغزى هام ، ولكن الحقيقة ذات المغزى الأهم هي تلـك التي تتعلق ببداية الجسم الإنساني ونهايته؛ وفي هذا المقام لا يُسعفنا علما « **الحياة** » و « **الأعضاء** » التقليديان. ولذلك قال أحد العلماء : « إن الحقائق الممكن معرفتها لا أهمية لهـا ، بينما الحقائق المهمة لا سبيل إلى معرفتها » [1] .

---

(١) «The Know able is unimbortant, and The inbortant is unknowable» .

وهنا أضاف العقل الحديث مقياساً جديداً إلى مجموعة المقاييس الاستدلالية المقبولة ، وهو أن :

المشاهدات والتجارب، وإن لم تكن مرتبطة بالقضية المطروحة -بالمعنى العلمي التكنيكي البحت- إلا أنه إذا كانت هناك قرينة جائزة لتأييد تلك القضية - وذلك في حالة عـــدم وجود نظرية أقوى لتفسير تلك المشاهدات - فان ذلك الاستدلال [بالقرينة الجائزة] على القضية المطروحة سيكون مقبولاً وسليماً .

وهذا المقياس الاستدلالي الرابع مقبولٌ أيضاً لدى العقل الحديث . وأي ادعاء تتوافر فيه شروط هذا المقياس يصبح نظرية علمية مقبولة .

ولكي نوضح كيف يستخدم هذا المقياس نأتي هنا بمثالين ، أحدهما سلبي والآخر إيجابي :

ففيما يتعلق **بالمثال السلبي** يمكننا أن نعرض النظريات المعادية للدين .. فإن العقل الحديث لا يقف عند حد الادعاء بأن الدين غير قابل للفهم، وإنما يتقدم ليصدر بياناً ضد الدين يتلخص في أن الدين باطل وأنه لا أساس له البتة .

لكن ، الى أي مقياس تستند دعواه في رفض الدين ؟

- إنــــه يستند الى المقياس الرابع الذي ذكرناه آنفاً ، مقياس القرينة الجائزة ومعناه أن العقل الحديث يسيغ ويقبل هــــذا المقياس ليقيم الأدلة ضد الدين .

إن قضية العصر الحديث ضد الدين تشتمل على جانبين متناقضين في آن واحــــد . فبينما يرى العقلُ الحديث من ناحية أن الدين مجموعة عقائد

لا يمكن إخضاعها للتجربة العلمية ، ولذلك يعتبر العقيدة عملا شخصياً للأفراد.. نجـد في نفس الوقت أن جيشاً من مفكري هـذا النهج الفكري يدّعون أن الكشوف العلمية الجديدة قد أبطلت العقائد الدينية .

ونحن نرى أن كلا الاتجاهين مناقض للآخر . فالدين ، حيث انــه من المستحيل إثباته علمياً ويتعلق بموضوع غير قابل للاثبات بالتجربة العلمية. فللسبب نفسه يجب أن يكون رفض الدين مستحيلاً أيضاً ، بنـاء على تلك المقاييس نفسها . وبكلمة أخرى : يتلخص موقف العصر الحديث في أنك لو حاولت إقامة الأدلة لاثبات الدين، فانهم سيقولون لك : إنك تجهد نفسك عبثاً ؛ لأن الدين ليس بشيء يمكن إثباته علمياً لعدم إمكان خضوعه لمقاييس العـلم الحديثة . ولكن هؤلاء أنفسهم عندما يقيمون الأدلة ضد الدين ، يجعلون من ذلك الدين نفسه [الذي سبق أن زعموا أنـه غير قابل للخضوع للتجربة العلمية] **ميداناً يمكنهم إقامة الأدلة العلمية لرفضه !!**

وليس السبب في هذا التناقض أن الدين في حقيقته يتعلق بميدان لا يقبل الأدلة العلمية ، لكن السبب الحقيقي في هذا التناقض ، هو أن معارضي الدين لا يريدون أن يَستغِلّ المؤمنون بالدين نفسَ المقاييس التي استخدمها هؤلاء لرفضه ، لأنــه لو تمكن المؤمنون بالدين من استغلالها استغلالاً طيباً لاضطر المعارضون الى أن يسلـّموا، على الأقل ، بأن الدين قائم على أسس «معقولة» . ومثلهم في هذا – تماماً – مثل محكمة يوجد فيها المحامي الحكومي ، ولكن المتهم لا يحق له استخدام محامٍ آخر وفق رغبته ؛ وهذا يؤكد أن الحكومة تسلـّم بمبدأ وجود المحامي لتوضيح قضية المتهم ، إلا أن المتهم عندمـا أراد استغلال ذلـك المبدأ لصالحه عارضته الحكومة التي تخشى أن ينتفع المتهم بالمبدأ نفسه .

فاذا كان المبدأ هو أن الحقيقة ليست إلا نتائج المشاهدة والتجربة العلمية، فلن تستقيم قضية معارضي الدين إلا إذا توصلوا بالمشاهدة والتجربة نفسها، إلى أن الدين في حقيقته النهائية: باطلٌ. فيجب أن تصل مشاهداتهم ودراساتهم الى الحد الذي يسمح لهم بالمجاهرة بأنهم قد شاهدوا وجرّبوا كل شيء داخل الكون وخارجه، في أقصى مداه، وأنهم – بناءً على ذلك – يعلنون أنه ليس هنالك إله ولا ملائكة ولا جنة ولا جحيم، بنفس الثقة التي يتمتع بها رجلٌ بصير يدير عينيه في حجرة مقياسها ١٠ × ١٠ من الأمتار ثم يعلن أنه لا يوجد في هذه الحجرة فيل ولا أسد !!

ومن الواضح أن معارضي الدين لا يتمتعون بهذا الموقف.

فما هو المقياس الاستدلالي الذي أتاح لهم كل تلك المعلومات التي ينشرونها ضد الدين؛ إنهم لم يشاهدوا مبادىء الدين ولم يجرّبوها في معاملهم.. وإنما هم يفسّرون بعض مشاهداتهم على أنها أبطلت حقية الدين. فمثلاً نراهم قد ادعوا بعد اكتشاف نظام الجاذبية في علم الفلك أنه لا وجود للإله الذي كانوا يظنون في الماضي أنه 'يمسك بالكون، فقانون الجاذبية يكفي الآن –في رأيهم– لتفسير ذلك الواقع. والجلي كل الجلاء أن هذا الدليل المستند على تلك المشاهدة لا ينهض – على الإطلاق – دليلاً على عدم وجود الله؛ **ذلك لأن منظاراً ما لم 'يخبرنا حتى هذه اللحظة، أنه لا وجود للاله في الكون الفسيح**، وإنما غاية ما هنالك أن بعض العلماء بناءً على بعض المشاهدات، زعموا أنه **لا ضرورة للاله في حالة وجود قوانين محكمة ثابتة.** فالمشاهدة أو التجربة لا تتعلق، ولو من بعيد، بعدم وجود الله، وإنما تتعلق بواقع آخر أقاموا في ضوئه زعمهم بأنه « **لا ضرورة** » للإله.

وأنا أقول: إن هذا المقياس الاستدلالي الذي اعتبروه صالحاً لرفض الدين،

هو نفسه أكبر دليل على حقية الدين . فالخطأ لا يكمن في هذا المقياس ، وإنما في كيفية تطبيقه ؛ لأنه في حالة تطبيقه بالأسلوب الصحيح ستظهر النتيجة عكسية تماماً .

لقد اتضح من هذا المثال أن العقل الحديث يسلّم بالمقياس الرابع الآنف الذكر كمقياس صالح لإقامة الأدلة .

وقد أتينا فيما سبق بمثال سلبي لتطبيق المقياس الاستدلالي الرابع ، ويمكننا أن نقدم نظرية « الارتقاء العضوي » Organic Evolution **كمثال إيجابي** . ومن المعلوم أن العصر الحديث قد قبل هذه النظرية بحيث تسربت آثارها إلى كل فروع العلوم الحديثة . وجدير بالذكر أن كل مقياس من المقاييس (الأول والثاني والثالث) التي مر ذكرها يرفض نظرية الارتقاء رفضاً قاطعاً ، إلا أن المقياس الرابع ، وحده ، يتصدى لإثباتها .

إن نظرية « الارتقاء العضوي » حقيقةٌ علمية لدى علماء اليوم . يقول أحد محرري موسوعة Science Of Life بهذه القطعية : « إنه ليس هنالك من أحدٍ يُنكر حقيقة الارتقاء العضوي ، إلا الجاهلين أو المتعصبين أو عباد الأوهام » .

لقد نشرت إحدى مكتبات نيويورك لكتب الجيب وهي: Modern Pocket Library ، سلسلةً من الكتب تحت عنوان :

الانسان والكون : Man And The Universe ، وقد جاء في الكتاب الخامس من هذه السلسلة أن كتاب داروين « أصل الأنواع » : « كتابٌ غيّر مجرى التاريخ » ، وقد أضاف المؤلف قوله :

« إن الإنسان يبذل جهده منذ عصور سحيقة لمعرفـــة شجرة نسبه. وفي هذا الصدد لم تلق نظريةٌ ما معارضةً دينية مثلما واجهت نظرية شارلس داروين حول الانتخاب الطبيعي ، كما أن أية نظرية لم تتمتع بالتصديق العلمي مثلما تتمتع به النظرية نفسها [١] » .

وكتب العالم الأمريكي سيمْبسنْ (G. G. Simpson) المعروف بحماسه لنظرية الارتقاء :

« كان داروين أحد عمالقة التاريـخ الذين ساهموا بجهود واضحة في رقي العلم الإنساني . لقد حصل على هذا المركز لأنــه أثبت نظرية الارتقاء على أنها حقيقة نهائياً وكلياً ، بحيث لم تعد قياساً أو فرضاً بديلاً أُخترع للبحث العلمي [٢] » .

ويقول عنها البروفيسور « مانديرِ » :

« لقد ثبت صدق هذه النظرية حتى إننا نستطيـع أن نعتبرهـا أقرب شيء إلى الحقيقة [٣] » .

ويقول « لَـلْ » :

« لقد ظلـّت نظرية الارتقاء تحصل على تأييد متزايد منــذ عهد داروين ، حتى إنه لم تعد شبهة اليــوم لدى المفكرين والعلماء في أنها الوسيلة المنطقية الوحيدة التي يمكن بها تفسير عمليـــة الخلق ، والتي

---

(١) Philosophers Of Science, p. 244.

(٢) Meaning Of Evolution (N. Y. 1951) P. 127.

(٣) A. E. Mander, Clearer Thinking, P. 113.

يمكن بها وحدها فهم تلك العملية [1] » .

ومن آرائه أيضاً :

« إن كل العلماء ، وأغلبية المثقفين قد اطمأنوا إلى صحة نظرية الارتقاء ، سواء كانت متعلقة بالجمادات أو الحيوانات . وذلك بمعنى أنه عندما أصبحت الأرض قابلة لسكنى الكائنات الحيّة ، ظهرت حينئذٍ بعض الأنواع البسيطة ، نتيجة لعملية طويلة الأمد ؛ ثم ظهرت الأنواع المدهشة الأخرى من النباتات والحيوانات التي نراها الآن بعيوننا [2] » .

ويمكنك أن تتصور مدى الرضا العام الذي حظيت به هذه النظرية من أن كتاب « لَلْ » المشار إليه آنفاً يحتوي على صفحة واحدة وبضعة سطور عن نظرية الخلق المباشر للحياة Special Creation ، بينما جعل المؤلف الصفحات السبعمائة الباقية لنظرية الارتقاء العضوي . وكذلك تجد أن دائرة المعارف البريطانية (١٩٥٨) تخصص أقل من ربع صفحة لنظرية الخلق Creationism ، بينما يشغل موضوع « الارتقاء العضوي » أربع عشرة صفحة كاملة مطبوعة بالأحرف الصغيرة . وقد أكدت دائرة المعارف هذه أن ارتقاء الحيوانات « حقيقة » Fact ، وأن هذه النظرية قد حظيت بالرضا العام من جمهرة العلماء والمثقفين .

ما هي الأدلة التي جعلت علماء العصر يتشبثون بصحة هذه النظرية ؟ سأذكر فيما يلي أهم الأسس التي ترتكز عليها هذه الأدلة ، لنتبين نوعيتها :

---

(١) R. S. Lull, Organic Evolution, P. 15.

(٢) Ibid, P. 83.

أولاً : إن دراسة الحيوانات تؤكد أنها تضم أنواعاً أعلى وأخرى أدنى ، ابتداءً من حيوانات تتألف من خلية واحـدة Single Cellular Animal إلى حيوانات تتألف من ملايين الخلايا . كما أن هناك اختلافاً كبيراً بين هـذه الحيوانات من حيث صلاحياتها وكفاءاتها ودرجات رقيّها .

ثانياً : لو قارنتَ معلومات هذه المشاهدة الابتدائية مع الحقـائق التي خرجت من جوف الأرض ، فسترى أن هناك ترتيباً ارتقائياً بحسب الزمن . فالحيوانات التي وُجدت على ظهر البسيطة قبل ملايين السنين يحتفـظ بطنُ الأرض بعظامها المتحجرة Fossils ، نتيجةً للعمل الطبيعي . وهذه العظام المتحجرة تقول لنا: إن أجسام حيوانات العصر القديم كانت بسيطة التركيب ، ثم ظهرت أنواع أرقى وأكثر تعقيداً على مرّ الزمن ، ومعنى هـذا أن كل الأنواع لم تظهر للوجود في وقت واحد ، إنما ظهرت الأنواع البسيطة أولاً ، ثم ظهرت بعد ذلك الأنواع الأكثر رقياً وتعقيداً .

ثالثاً : ثم نكتشف حقيقةً أخرى ، وهي أن النظـام الجسماني لكل الحيوانات مشابه جداً للآخر ، بالرغم من كل الاختلافات النوعيـة ، فالطير يشبه السمك ، وهيكل الحصان يشبه جسم الإنسان ... إلى آخره .

وبناء على هذا الاكتشاف يحتمل أن تكون كل الأجسام الحيّة منتهيةً إلى أسرة واحدة، وأن الجدّ الأعلى لكل الكائنات الحيّة ليس إلا جدّاً واحداً.

رابعاً : كيف خرج نوعٌ من نوع آخر ؟ إن بإمكاننا — كما يقولون — أن نتأكد من حدوث هذا حين نشاهد أن أولاد أمٍّ واحـدة من أي حيوان ليسوا متشابهين ، بل توجد فروق بينهم ، وهذه الفروق تتطور في الأجيال التالية ، وتتقدم نحو الأمام ، ونحو الأفضل ، وفقاً لعمل قانون « الانتخاب الطبيعي » . وهـذه الفروق تكبر بصورة مدهشة بعد ملايين السنين ،

حتى إن الشياه ذات الأعناق الصغيرة تتحول إلى الزراف ذات الأعناق الطويلة جداً !

وقد اكتسبت هذه النظرية أهمية غير عادية، حتى إن « هالدين وهكسلي» اللذين ألّفا كتاب Animal Biology قد سمّيا نظرية الارتقاء والتطور باسم جديد هو : « انتخاب التغيرات » Selection Of Mutation .

ما هو المقياس الذي يدعم مزاعم أصحاب نظرية الارتقاء هذه ؟

إن ذلك هو المقيـاس الرابع الذي سبق أن ذكرناه ، والذي فحواه أن حصولنا على شواهد تثبت قرينة منطقية لصحة دعوى ما: كافٍ في الاستدلال بالرغم من عدم التمكن من تجربة الدعوى أو آثارها ، مباشرةً .

إن محامي نظرية الارتقاء لم يتمكنوا حتى الآن من تمكيننا من مشاهدة أو تجربة أي أساس تقوم عليه مزاعمهم ... فعلى سبيل المثال: ليس بوسعهم أن يثبتوا لك بالرؤية المباشرة ، في معمل ما ، كيف توجد الحياة من مـادة لا حياة فيها . وتستند مزاعمهم ، في هذا الصدد ، على شيء واحد هو أنّ سجل الطبيعة يؤكد أن الوجود الأوّل كان لمادةٍ بدون حياة ، ثم بـــدأت الحياة تدبّ في الكون ، فاستنتجوا من ذلك أن الحيـــاة خرجت من المادة الميتة كما يخرج الطفل من بطن أمّه .

وهكذا لم يخضع أي تغير ، من نوع إلى نوع آخر ، لتجربة أو مشاهدة من أي إنسان .. فلم يحدث أن أجريت تجارب في إحدى حدائق الحيوانات فخرجت الزراف من بطون الشياه !!

ولكن على أساس التشابه الموجود في مختلف الأنواع ، وحدوث فروق في

أولاد الأم الواحدة ، أقاموا القياس القائل بأن الأنواع المختلفة لم توجد على حدة ، بل خرج كل نوع من بطن نوع آخر .. وهكذا تطورات الفطرة أو الجبلّة إلى العقل المدرك ، أو بعبارة أخرى : إن الإنسان جيل أرفع للحيوان . ولكن **حتى الآن لم تُجْرَ أية تجارب يظهر فيها تحول الفطرة أو الجبلة إلى العقل المدرك !!**

وهذا ليس إلا قياساً ساذجاً لا يستند إلا إلى دليل واحد هو أن آثار الحيوانات الراقية المتمتعة بالجبلّة المدركة تتصل بحيوانات أُخرى من الطبقة الدنيا ، كما أنه توجد آثار أخرى المتمتعة بالعقل المدرك تتصل بحيوانات أخرى من الطبقة العليا .

إن نوعية كل هذه الأدلة تبيِّن أن العلاقة بين الدعوى والدليل **علاقة منطقية** ، وليست **علاقة تجربة** ناتجة عن المشاهدة .

ولكن نظرية الارتقاء أصبحت اليوم بمثابة حقيقة علمية ، بناءً على هذه الأدلة نفسها ...

ونصل من هذا إلى أن العقل الحديث لا يحصر دائرة العلم في تلك الوقائع التي يمكننا تجربتها مباشرة ، وإنما يعتبر أن أية قرينة منطقية تستند إلى تجارب ومشاهدات غير مباشرة ، يمكنها أيضاً أن تصبح حقيقة علمية بنفس درجة الحقائق العلمية التي نتمكن من مشاهدتها مباشرةً .

إنني لا أبحث هنا في صحة أو بطلان نظرية الارتقاء ، لأن القضية أمامنا الآن تتعلق بمقياس الاستدلال ، وليس بنظرية الارتقاء .

ومن المعلوم أنه مهما كانت المقاييس ، فإن أي شيء يثبت بناءً على تلك

المقاييس يمكن أن يكون صحيحاً أو باطلاً .

والنظريات تتغير من يوم لآخر في عالم العلم ، بالرغم من أنه يمكن إثباتها، بصفة عامة ، بمقياس أو آخر من المقاييس العلمية المذكورة آنفاً .

فالتسليم بجواز وحقيــة مقياس مّا لا يُلزمنا أن نقبـــل بالضرورة كل ما يقدم إلينا بواسطة ذلك المقياس على أنه حقيقة علميـــة . فاحتمال كون النتيجة باطلةً باقٍ ، مع أن صحة المقياس وجواز الاستدلال به يبقى قائماً ، أيضاً في نفس الوقت .

لقد عبّر السيد آرثر كيث عن رأيه في نظرية الارتقـــاء بأنها « العقيدة الأساسية في المذهب العقلي » «Basic Dogma Of Rationalisme» ، وقـد عرّفت موسوعةٌ علمية نظرية الارتقاء : « بأنها نظرية قـــائمة على تفسير بدون براهين »[1] .

فكيف يجوز لنا أن نعتبر نظريةً ما بأنها حقيقة علميـــة بالرغم من أنها لا يمكن تجربتها في المعمل ، وبالرغم من أنها تـُعـَرّف بأنها « عقيدة » ؟!

إن البروفيسور « ماندير » يشرح لنا أسباب ذلك فيقول :

أولاً : « هذه النظرية توافق جميع الحقائق المعلومة .

ثانياً : « في هذه النظرية تفسير لكثير من الوقـــائع التي لا يمكن فهمها إلا عن طريقها .

---

(١) Revolt Against Reason, pp **111 - 112.**

ثالثاً : « لم تظهر بعدُ نظرية « تناسب وتوافق الحقـــائق بهذه الدقة » [١] .

فاذا كانت هذه الأدلة كافية لجعل نظرية الارتقاء حقيقـــة مقبولة في ضوء مقاييس الاستدلال العلمية ، فان هذه الأدلة نفسها موجودة كذلك ، في جانب الدين بصورة أشد وأكمل . وفي هذه الحالة يعجز العقل الحديث عن تبرير موقفه من تبنّيه لنظرية الارتقـاء كحقيقة علمية ، وعن تـبرير رفضه للدين – باعتبار أنه غير قابل ولو لمجرد البحث العلمي – مع تكافؤ الأدلة بين نظرية الارتقاء والدين كليهما .

وقد تـُثار قضية الاستدلال بواسطة المقياس الرابع على أنه لا يمكن قبول الاستدلال به بالضرورة ، لعدم وجود رابط مباشر بين الدعوى والتجربة ، ولكون « الاستنباط » وحده هو الرابط بين الأمرين . إنني أعترف بإمكان بطـلان الاستنباط ؛ ولكن مع وجوب ملاحظة أن إمكان البطلان هنـــا لا يؤثر في صحة (المقياس) نفسه. ولو استسغنا هذا الأساس دليلاً كافياً للشك في صحة الاستدلال بواسطة المقياس الرابـع ، فلا مناص من أننا سوف نضطر – بناءً على هذا الدليل نفسه – إلى التشكك في صحة جميع المقاييس الأخرى التي يقوم عليها أساس علومنا الحديثة .

إن جميع النظريات المسلـّم بها في العـــلم بدون استثناء لا يمكن مشاهدتها أو تجربتها هي نفسها [النظريات] إن كل تلك النظريات تستنـــــد على تجارب خارجية ومشاهدات غير مباشرة. فهنا أيضاً ، الرابط بين التجربة والنظرية هو « الاستنباط » . وعلى سبيل المثال عندما يقول العالِم :

(١) Clearer Thinking, p 112.

« إن الكهرباء معناها تدفق Flow الإليكترون » ، فليس معنى قوله أنه قد شاهد الإليكترون بمنظاره يتحرك في إحدى الكابلات .

إن هذا القول ليس إلا تفسيراً لذلك الواقع المعروف الذي نشاهده عندما تضيء اللمبة ، وتدور المروحة ، وتتحرك مصانع بأكملها بمجرد ضغطنا على زرٍ واحد ، فالذي جربناه في الحقيقة لم يكن إلا مظهراً خارجياً ، وهو الذي أتاح لنا استنباط حقيقة أخرى . ومن هذه الزاوية نجد أن كل النظريات العلمية فروض قياسية محضة ، في حين أن هذا الاتهام لا يوجَّه إلا إلى النظريات القائمة على أساس المقياس الرابع !

إن الفرق الوحيد الذي يمكن تحديده بين المقياس الثالث والمقياس الرابع هو أن التجربة أو المشاهدة تتعلق مباشرة بالادعاء الأصلي في المقياس الثالث ، بينما لا ترتبط التجربة أو المشاهدة ارتباطاً مباشراً بالدعوى في المقياس الرابع . **ولكن أهمية هذا الفرق تتداعى بمجرد أن نواجهها بالواقع الحقيقي ، وهو أنه مهما كانت التجربة أو المشاهدة مباشرةً إلا أنها لا تعدو أن تكون مظهراً خارجياً للحقيقة الواقعة ، لأن تلك التجربة ليست هي الحقيقة نفسها** . ومثال ذلك أن رقم التليفون مرتبط بصاحبه ، إلا أن هذا الرقم ليس هو بعينه صاحب التليفون. فكل ما يربط المشاهدة أو التجربة بالحقيقة الواقعة هو « شيءٌ » في الذهن الإنساني ، وهو ما نسميه نحن: «بالاستنباط» ، وهو شيء آخر غير المشاهدة كما نرى . ولهذا السبب عرَّف أحد العلماء « النظريات » بأنها : **« صورٌ ذهنية تشرح قوانين معروفة »** [1] .

---

(١) « Theories Are Mental Pictures That Explain Known Laws. »

فواقع الارتباط بين ضغط الزرّ وإضاءة اللمبة يؤكد وجود علاقة خاصة مباشرة بين العمليتين ، ولكن على الرغم من هذا المظهر تبقى العلاقة الأصلية غير مرئية ، فلا يبقى لدينا إلا استنباط نظرية ما تشرح تلك العلاقة الرابطة بين الواقعتين . ولكن على الرغم من قبولنا وتسليمنا بالظـاهرة المشاهدة في « الزرّ واللمبة » يبقى الاحتمال باقياً : هل النظرية العلمية الشارحة للعلاقة بين الواقعتين هي نفسها صحيحة أم باطلة ؟

... ولكن مع هذا الشك ، ومع احتمال الخطأ والصواب ، فاننا لا يمكن أن نمنع عالماً ما من ان يُقيم لمشاهداته نظرياتٍ ثم يصرّ على اعتبارهـــا صحيحة أيضاً ؛ ولهذا السبب نفسه لا يجوز لأحـــد أن يمنع فيلسوفاً أو رجل دين من أن يؤسس نظريات يعتمد فيها على المقياس الرابع للاستدلال، ثم يصرّ – بدوره – على اعتبارها حقيقة صحيحة .

الفصل الثاني

أفكار برتراند رسل

مناقشة نموذجيّة لأفكار ملحدٍ معروف

« .. إن الاستدلال بالنظام على المنظِّم هو الأمر المقبول . اما الداروينية فلم تعد بعد في موقف يسمح لـ « رسل ما » أن يرفض على أساسها هذه الحجة القويّة » .

قررتُ في صيف عام ١٩٦٦ أن أقرأ كل أعمال برتراند راسل (١٨٧٢ – ١٩٧٠) ، ولحسن حظي وجدت مجموعة كتبه كاملةً في مكتبة قريبة من بيتي. ولكنني حين حملتها إلى البيت تجهمت زوجتي من رؤية تلك الكتب ، وقالت لي : « إنك ستغوى عما قريب » !

والحقيقة أن برتراند رسل يعتبر أعتى مفكر ملحد في هذا العصر . ولهذا لا تخلو قراءة كتبه من المخاطر حسب الذوق العام ؛ ولكنني أشكر الله سبحانه وتعالى أن وفّقني إلى أن أدخل عالَمَ برتراند رسل وأن أخرج منه بإيمان أكثر صلابة وعمقاً .

إن رسل أوسع مفكري العصر علماً ودراسة ، ويقال إنه لا يمكن استثناء أحد من هذه القاعدة غير « وهايت هيد » . . إن حياة برتراند رسل شملت قرناً تقريباً . وقضى عمره ، كما يقول محاولاً معرفة شيئين :

« كم من الأشياء يمكننا أن نقول عنها : إننا نعرفها ؛ ثم أيّ قدر من المعرفة يقيني وأي قدر منها مشتبه فيه[١] » ؟

وللوصول إلى هذا المقصد استعان برتراند رسل بأربعة علوم ، هي :

---

(١) My Philosophical Development (1959) p. 11.

الطبيعية [الفيزياء] ، وعلم الحياة [فسيولوجيا] ، وعلم النفس ، والمنطق الرياضي[١] .

وبعد دراسة هذه العلوم انتهى برتراند رسل إلى أن : « **مذهب التشكيك** [في الوجود] **مستحيل ، نفسياً**[٢] » .

ولكن الإنسان يصاب هنا بمشكلة ذات حدّين . فمن ناحيـــة لا يمكنه الحياة في الدنيا بأن يقول : « **لا أدري** » ؛ ومن ناحية أُخرى عندما نرغب في المعرفة لا نتمكن إلا من الإحاطة بأقل قدر من المعرفة :

« **تدعي الفلسفة منذ القدم ادعـاءاتٍ كبيرة ، ولكن حصيلتها أقل بكثير بالنسبة إلى العلوم الاخرى**[٣] » .

[التشديد مضاف]

ولم يهتدِ برتراند رسل إلى تكوين فلسفة متكاملة بالرغم من أنه أمضى كل حياته في سبيل ذلك . وبعبـــارة البروفيسور آلان وود Alan Wood : « **برتراند رسل فيلسوف بدون فلسفة** » .

والمشهور أن المنطق والرياضة هما طريق الوصول إلى المعرفـة ، ولكنها عند رسل :

« الحروف الأبجدية لكتاب الطبيعة ، وليسا الكتاب نفسه[٤] ».

---

(١) Ibid, p. 16.

(٢) Human Knowledge, (1956) p. 9

(٣) Our Knowledge Of The External World (1952) p. 13.

(٤) My Philosophical Development, p. 277

ورسل يقسّم المعرفة إلى قسمين: معرفة الأشياء Knowledge Of Things ومعرفة الحقائق Knowledge Of Truths(١) .

فمعرفة الأشياء ، بكلمة أُخرى هي معرفة الوقائع الحسية Sensible Facts ، ولكن الحقائق الحسية ليست هي كل شيء ، بل تكمن وراءها حقائق أُخرى لا تتمكن حواسنا من إدراكها ، وسبيلنا إلى تلك الحقائق هو « الاستنباط » Inference الذي يقوم على أساس الوقائع المحسوسة المتاحة.

و « الاستنباط » عند رسل صحيح Valid ، « ولكن يجب أن يكون هذا الاستنباط علمياً (٢) » .

وكل الأشياء التي ندركها بدون استنباط يسميها رسل بالمعلومات (الحقائق) Data ، وهي ما تدركه الحواس ، من الطرق البصرية Visual والسمعية Auditory واللمسية Tactile وغير ذلك .

ويقول رسل : « **إن تصورنا العلمي للكون لا تدعمه حواسنا التجريبية، بل هو عالم « مستنبَطٌ » Infered World كلياً »** . ويبلغ الأمر برسل أن يقول :

« إن أفكار الناس لا توجد إلا في خيلاتهم فحسب (٣) ».

إن النتيجة التي توصل اليها رسل هي أن « التجربة » Experience **قد**

---

(١) The problems Of philosophy, (1957), p. 46.

(٢) My philosophical Development, p. 207.

(٣) My philosophical Development, p. 25.

أعطيت لها اكبر اهمية ، ولذلك يجب ان تخضع« التجريبية »Empiricism **كفلسفة لتحديدات هامة** Important Limitation [1] .

[التشديد مضاف]

« لقد وجدتُ أن معظم الفلاسفة قد أخطأوا في فهم الشيء الذي يمكن استنباطه بالتجربة فحسب ، والشيء الذي لا يمكن استنباطه بالتجربة [2] » .

وهو يقول أيضاً :

« لسوء حظنا لم تعد الطبيعة النظرية تُحدّثنا اليومَ بالثقة الرائعة نفسها التي كانت تحدثنا بها في القرن السابع عشر . لقد كانت لأعمال « نيوتن » أربعة تخيلات أساسية ، هي : المكان ، والزمان ، والمادة ، والقوة . وقد أصبحت هذه العناصر نسياً منسياً في علم الطبيعة الحديث . فقد كان الزمان والمكان من الأشياء الجامدة والمستقلة عند « نيوتن » ، والآن قد تمّ استبدالهما بما يسمى« المكان ـ الزمان » Space - Time والذي لا يعتبر جوهرياً (أساسياً) Substantial ، وإنما هو نظام للروابط. وأصبحت « المادة » شكلاً لسلسلة الوقائع ، وأصبحت « القوة » (Force) الآن : الطاقة (Energy) والطاقة نفسها شيءٌ لا يمكن فصله عن المادة الباقية . و « السبب » Cause كان هو الشكل الفلسفي لما كان يسميه علماء الطبيعة بـ (القوة) ، وقد أصبح هذا التصور قديماً ، إن لم أقل

---

(١) Ibid, p. 191.

(٢) Ibid, p. 194.

إنه قد مات فعلا ؛ إلا أن هذه الفكرة لم تعـــد قوية كما كانت من قبلُ [1] » .

ويقول رسل :

« إنه قد توصل ، بعد دراسات استنفدت كل عمره ، إلى ان « الاستنباط الذي لا يمكن إيضاحه » Non Demonstrable Inference يُعتبر ، ايضاً ، مقبولاً وجائزاً . وعند رفض هذا النوع من الاستنباط سوف يصاب النظام الكامل للعلوم والحياة الانسانية بالشلل [2] » . (التشديد مضاف)

وهو يقول أيضاً :

« إن العلوم تشمل كلا العالَمين : الحقيقي Real والعالم المتخيل وجوده Believed World. وكلما تقدم العلم ازداد فيه عنصر الاعتقاد (التأكد) ، فبعض الأشياء في العلوم حقائق مشاهـــدة ، ولكن الأشياء العليا تجريداتٌ علمية Scientific Abstractions يتمّ استنباطها بناءً على المشاهدة . **والحقيقة انه لا يمكن رفض مذهب الشك الكلي** Universal Scepticism **إطلاقاً ، إلا انه ، مع ذلك، يصعب قبول التشكيك الكلي ، في نفس الوقت** [3] » .

---

(١) Ibid, p. 17.

(٢) Ibid, p. 204.

(٣) Ibid, p. 206. [التشديد مضاف] .

ويستطرد رسل قائلاً :

« لقد توصلت إلى أن أقبل « حقائق الحس » Facts Of Sense وأن أقبل معها ، بصفة عامة : حقيقة العلم ، ليكونا معاً المادة الأساسية (لتفكير) الفيلسوف . هـذا على الرغم من أن كونهما قطعياً مطلقاً Quite Certain غير مؤكد. فهذا (القبول) لا يعدو ، في رأيي ، أكثر من « إمكان (ترجيحي) على درجة أعلى » Higher Degree Of possibility استطعنا الحصول عليه لصالح القياس الفلسفي [١] » .

والاقتباس التالي سوف يكمّل لنا صورة أفكار رسل :

« إنه لم يُفهم جيداً ، حتى الآن ، أن المعلومات التي تأتينا عن طريق علم الطبيعة النظرية هي معلومات على درجة كبيرة من التجرد Exceedingly Abstract ، وهي تُنْشِيء عدة معادلات أساسية ، يتمكن علم الطبيعة بواسطتها من إظهار الهيكل المنطقي للوقائع ، في حين أن الشكل الداخلي (الباطني) Intrinsic للوقائع لا يزال مجهولاً تماماً . **وليس ثمة في الطبيعة النظرية من شيءٍ يتيح لنا التحدث في الشكل الباطني للوقائع** . إن كل معطيات الطبيعة هي فقط عدة معادلات تُبيِّن الخواص المجردة للتغيرات (التي تطرأ على الوقائع) . **ولكن ما هو الشيءُ الذي يَحْدُثُ له التغيّرُ ، ومن أين يحدث ذلك التغيّر (؟) ، إن علم الطبيعة يلتزم الصمت**

---

(١) Ibid, p. 207.

تجاه هذه القضايا [1] » .

وقد ختم رسل باب « **الاستنباط الذي لا يمكن إيضاحه** » في كتابه « تطوري الفلسفي » بقوله :

« **إنه لا يمكن الادعاء بالقطعية (في النظريات أو الآراء) على النحو الذي سار عليه الفلاسفة المتسرعون ، بكثرة وبدون جدوى [2] » .**

ويتضح لنا من هذه الدراسة لأفكار برتراند رسل أنه لم يكن أمامه إلا خياران : إما أن يحتمي بمذهب التشكيك الكلي ، أو يعترف بحقية الدين . فحيث إنه لم يستطع الوقوف إلا على الهيكل الخارجي للأشياء ، واستحال عليه معرفة بواطنها ، فلم يبق لديه إلا طريقان : **إما أن يصر على أنه لن يؤمن بحقية شيء ما ، إلا إذا تمكن من الوصول إلى الحقيقة مباشرة ونهائياً.** وحيث أن العلم حتى الآن ينكر حدوث مثل هذه المعجزات ، فعلى الرجل أن يستسلم قائلاً : « **لا أدري** » ؛ **ولكن رسل لا يقبل لنفسه هذا الموقف ، بل يتقدم ليجيز الاستنباط المأخوذ عن الحقيقة الباطنية في ضوء الهيكل الخارجي للشيء . وهو بهذا يكاد يدخل « دائرة » الدين ؛** فالدين يقطع بأن الإنسان لا يمكنه إدراك الحقيقة النهائية بحواسه المحدودة ، وإنما يستطيع قياس بواطن الحقائق على ضوء ما يشاهده في ظاهر الكون .

ولكن العجيب أن رسل ينكر التشكيك الكلي ويرفض الدين في الوقت

---

(١) Ibid, p. **18.** [التشديد مضاف] .

(٢) Ibid, p. **207.** [التشديد مضاف] .

نفسه أيضاً ، وينسى أنه قد وقع في تناقض شديد على ضوء مسلّماته نفسها .

إن رسل يسلّم بوضوح ، بصحة « العقائد » التي لم تخضع للتجربة . وهو يعترف بأنه يؤمن ببعض « العقائد » ، والتي منها على سبيل المثال قبوله لمعلوماتنا عن الماضي السحيق للأرض وعن النجوم البعيدة التي ندرسها في علم الفلك وغيره .

وسوف أنقل هنا بعض ما قاله رسل في هذا الصدد :

«إنني أؤمن بالمبدأ القائل بأن هناك طرقاً معقولة لاستنباط وقائع من وقائع أخرى ... وبالتحديد : الاستنباط من (وقائع أعرفها بدون استنباط) لوقائع لم تتأتّ لي معرفتها بتلك الطريقة » [١] .

وفي كتاب آخر يقول :

«إنني أجزم بأن هناك طرقاً للاستنباط أقرب إلى الحق ، ويجب قبولها رغم أنه لا يمكن إثباتها بالتجربة » [٢] .

بعد هذا الاعتراف الصريح لا يبقى الدين — بقياس رسل نفسه — شيئاً يستحيل إثباته بالدليل والبرهان ؛ لأن المقياس الاستدلالي الذي يُقرّه هنا هو نفس المقياس الذي نُثبت به حقية الدين .

---

(١) Human knowledge, P. 10.

(٢) My Philosophical Development, P. 132.

[التشديد مضاف]

والأمر الأكثر دهشةً أن رسل قـــد اعترف بطريقة غير مباشرة بوجود وسائـــل استنباطية في صالـح الدين يمكن اعتبارها « **استنباطاً علمياً** » . ولكن رسل يرفض تلك الأدلة لأسباب تافهة جداً . يقول رسل في كتابـه « لماذا لستُ مسيحياً ؟ » :

« إنني أعتقد أن كل الأديان العالمية الكبرى كالبوذية والهندوسية والمسيحية والإسلام والشيوعية : باطلةٌ وضارّةٌ » .

« صحيحٌ أن المتكلمين قد اخترعوا أدلةً يمكن أن يقال عنها إنها منطقية ومثبتة لوجود الله . وهذه الأدلة ، أو ما شابهها قد أقرّها كثير من الفلاسفة الكبار . ولكن المنطق الذي تستند إليه هـــذه الأدلة هــو منطق أرسطو الذي قـــد رفضه — عملياً — كل علماء المنطق ، باستثناء رجال الدين » .

ثم يستطرد قائلاً :

« **وهناك دليل من بين هذه الأدلة ليس منطقياً محضاً .. إنـــه الاستدلال بـ « نظام » [تخطيط] الكون** (*) Design ، **مع أن داروين على كل حال ، قد أبطل هذا الدليل** » (١) .

إن أهم ما في هذا الاقتباس هو **اعتراف رسل بجواز الاستدلال المنطقي بـ « نظام الكون »** . ولكن بالرغم من اعترافه بهذا الدليل — كمبدأ — فإنه

(*) هو الدليل المسمى في علم الكلام (فلسفة العقيدة) بدليل الإبداع (المراجع) .

(١) Why Iam not a Christian (1959), P. X 1 .

[التشديد مضاف]

يذهب الى أن الداروينية قد أبطلت ذلك الدليل ، او على الأقل، قد قلّلت من أهميته .

إن هذا البيان – السابق ذكره – يثير بعض الملاحظات :

جاء في الاقتباس الآنف الذكر أن الدين يدعي أن هناك وجوداً لنوع من « النظام » في الكون ، وأن هذا النظام – بدوره – يؤكد وجود قوة ذات وعي وإدراك تقف وراء الكون وتنظّمه ، ولولا ذلك لكان الكون مادة وحطاماً دون ترتيب .

إن رسل يقبل هذا الاستدلال كمبدأ ، لكنه يسرع فيقول : إن دراسة داروين لمظاهر الطبيعة قد أكدت أن أنواع الحياة المختلفة الموجودة على ظهر الأرض قد جاءت الى الوجود نتيجةً لأحوال مادية عمياء دامت مئات الملايين من السنين . وعلى سبيل المثال : لم يخلق أحدٌ الزراف ، ولكن حيواناً مثل الماعز تطور الى الزراف نتيجة لعمل طبيعي طويل الأمد .

لا أريد أن أتحدث هنا بإسهاب عن الداروينية ، ولكنني ، بإيجاز ، سأقول :

إن الأساس الذي لجأ إليه رسل لرفض مبدإٍ ، أقرّ هو بصوابه المنطقي، أساسٌ جد ضعيف وواهٍ .

فقبل كل شيء يجب ألا يفوتنا أن الداروينية لا تزال نظرية غير ثابتة كلياً حتى الآن . إن نظرية الارتقاء لا تثبت شيئاً أكثر من أن الأنواع المختلفة لم توجد في وقت واحد ، بل وجدت أنواع مختلفة في مراحل مختلفة، وأن هناك ترتيباً زمنياً في الأنواع الحية ، أي أن الأنواع البسيطة للحياة

وجدت قبل وجود الأنواع الحية المعقدة . **والأمر الذي لا يزال غير ثابت ، بكل قطعية هو : هل الأنواع الحية المعقدة هي – حقيقة – صورٌ راقية للأنواع البسيطة التي وجـــدت في الزمن السحيق ثم تطورت تلقانياً الى صورها الحالية نتيجة للعمل المادي الطويل ، أم أنهـا ليست كذلك ؟ إن المشاهدة تؤكد الجزء الأول . أما الجزء الثاني من نظرية الارتقاء فـلا يزال افتراضاً محضاً اختلقه العلماء الذين آمنوا بتلك النظرية . وهـــذا الجزء الافتراضي من نظرية الارتقاء لا يمكن مشاهدته تحت أي ظرف من الظروف، كما أنـــه غير قابل للخضوع للتجارب بأي شكل من الأشكال . هـذا بينما يتوقف جواز الاستدلال بنظرية الارتقاء على ثبوت هذا الجزء الثاني منها فقط ، وهو أمر قد أهمله برتراند رسل بكل تأكيد .**

والعلماء الذين يدينون بنظرية الارتقاء ويدافعون عنها يقرون بهـذا الضعف في الداروينية، وعلى سبيل المثال يقول السير آرثر كيث [١٨٦٦ – ١٩٥٥]:

« الارتقاء غير ثابت ولا يمكن إثباته. ونحن نؤمن بهذه النظرية لأن البديل الوحيد هو (الايمان بـ) الخلق المباشر ، وهو أمر لا يمكن حتى التفكير فيه [١] ».

ولذلك قسّم هؤلاء العلماء نظريتهم الجديدة إلى جزئين: «**نظرية الارتقاء**» و « **سبب الارتقاء** »، فيقولون: إن نظرية الارتقاء يقينية، أما سبب الارتقاء

---

(١) « Evolution is unproved and unprovable. We beleive it only because the only alternative is special creation, and that is unthinkable. »

(Sir) Arthur keith.

فمجهول حتى اليوم. وهذا التقسيم يمكننا فهمه بصورة أحسن لو قسّمنا النظرية إلى « **نظرية الارتقاء** » و « **دليل الارتقاء** » . إن نظريةً ما لن تصبح يقينية إلا إذا توصلنا إلى أسبابها الدالّة عليها . **فنظرية الارتقاء أو التطور لا تزال نظرية مجهولة الدليل .. بيد أن العلماء الذين آمنوا بها يعتبرونها نظرية ثابتة ومقبولة على الرغم من نقطة الضعف الخطيرة هذه .**

إن أبعد شيء عن المنطق أن يقال إن نظريةً – هذه حقيقتها – قد حطّمت المقياس الذي يدلّ على الدين !

أما النقطة الثانية التي يجب ألا تغيب عنا فهي أن دعوى رسل ستظلّ مرفوضة ، حتى ولو افترضنا أن أنواع الحياة قد وجدت نتيجةً لعمل الارتقاء ؛ لأن دعوى رسل تستلزم أن نفترض – تلقائياً – أن (**الخالق في العقيدة الدينية**) لا يمكن أن يكون إلا (**وجوداً يخلق الاشياء آلياً بنفخة واحدة**) ، وأن ذلك الخالق **ليس في إمكانه أن يوجد مخلوقاته بترتيب ونظام سابقين في زمن طويل** . فدعوى رسل أولاً لا تستند إلى أي أساس إطلاقاً ، ثم هي لا تنفي القدرة المطلقة لله **في الخلق الفوري أو الخلق على مراحل** وفق مشيئته هو .

ولا يزال الإنسان ، منذ آلاف السنين يؤمن بأن خالقه وخالق الشجر هو الله القادر المطلق . وظلّ طوال هذه القرون الطويلة أيضاً يشاهد الطفلَ يصبح رجلاً كاملاً بعد أربعين سنة من ولادته ، والشجرَ العملاق يكتمل عوده بعد قرن أو نصف قرن من الزمان . ولكن هذه المشاهدة لم تزلزل من إيمان الإنسان بأن الله هو القادر المطلق . **فعقله لم يوجب - أبداً - أن كون الله « الخالق القادر المطلق » يستلزم ظهور الانسان والشجر في أشكالها الكاملة مرةً واحدةً آلياً .**

وهكذا ، فان كشوف المستقبل حتى ولو أثبتت بكل قطعية أن مظاهر الحياة لم تظهر على سطح الأرض مرةً واحدة ، وإنما ظهرت إلى الوجود نتيجةً لخضوعها لعملٍ تطوري طويل الأمد ... حتى لو ثبت هذا ، فان ذلك الاثبات ـ الذي لم يتوافر لنا بكل قطعية حتى الآن ـ لن يُبطِل قضية الدين ولن يستلزم إعادة النظر فيها .. ذلك لأن هـذا الاثبات المفترض إنما يتعلق بأسلوب الله في الخلق ، ولا يفسّر لنا ماهية الخالق أو المبدع نفسه!!

وكلمة أخيرة :

إنني أعتقد أن بيان برتراند رسل في الاقتباس الذي مرّ آنفـاً ، إنما هو اعتراف ــ من ناحية المبدأ ــ بحقيقة الدين، جاء على لسان مفكر ملحد. إنه يقر بالنظام في الكون ، وأن النظام يستلزم المنظّم ، ولكنه حين يلجأ إلى « الداروينية » لرفض هذا الاستدلال القوي ، فإنه بذلك يُبطِل قضيةً أقام بنفسه الدليلَ على صحتها .. وذلك لأن «النظام» حقيقة ثابتة ومعروفة للكل ، بينما لا تزال « الداروينية » نظرية غير ثابتة كليّاً . فـإن الجزء الذي يزعم في النظرية الداروينية بأن النظام ذا الدلالة أو المغزى إنما يوجـد في أنواع الحياة نتيجةً لعوامل مادية ، إن ذلك الجزء من الداروينية لا يزال افتراضاً محضاً . فالاستدلال بالنظام على المنظّم إنما هو الأمر المقبول ؛ أما الداروينية فلم تعد بعدُ ، في موقفٍ يَسمح لـ « رسلٍ ما » أن يرفض على أساسها هذه الحجة القوية !!

الفصل الثالث

التفسير الميكانيكي للكون

قصة صعود وسقوط قانون التعليل

« إن مثقفي اليوم الذين يزعمون التقدمية ويدعون العصرية يدينون بدين جديد هو الإلحاد بدلاً من الدين القديم : الشرك » .

« لقد أجمعت أكثرية العلماء المعاصرين - في ضوء المعلومات الجديدة - على أن نهر العلم ينساب نحو « حقيقة غير ميكانيكية » .

حين اكتشف علماء القرنين الثامن عشر والتاسع عشر أن الكون يُسيّره قانونُ العلّة والمعـلول Cause And Effect ، تهافت المفكرون الملحدون . لقد زعموا أن هـذا الكشف العلمي بديلٌ لله على الرغم من أن العلماء الذين اكتشفوه لم يزعموا ذلك . فقد قال « نيوتن » : « **هـذا هو أسلوب الله في العمل ، فالله يُجري مشيئتَه في الكون بواسطة أسباب وعلل** » .

ولكن الذين كانوا يريدون صياغة فلسفة جديدة في ضوء أحدث الكشوف العلمية ، وجدوا أن هذا الكشف يكفي دليلاً على إبطـال وجود الله ، ومن ثم شيّدوا بناءً فكرياً كاملاً !

وهكذا ظهرت إلى حيز الوجود تلك النظرية التي تسمى « **التـفسير الميكانيكي للكون** » ... وأصبح من الحقائق المسلّم بها أن جميع وقائـع الكون تحدث بسبب علل مادية دون تدخل خارجي ، وأن الكون كله مربوط في سلسلة العلة والمعلول .

وكانت هذه هي إحدى مسلمات القرن التاسع عشر . ولنقرأ هـذا الاقتبـاس المصبوغ بلهجة حاسمة ، تحدثنا بها دائرة معـارف نشرت سنة ١٨٧٤ :

« إن الفلاسفة الطبيعيين وعلماء الكيمياء والفـيزياء يعتقدون أن سبباً واحداً يُنتج نتيجـةً واحدة ، دائمـاً . وأية نظرية لو أثبتت

نجاحها في مثال واحد فهؤلاء العلماء يؤمنون بأن هذا النجاح يصبح مضطرداً للأبد . ولهذا لم يعد هناك أي اختلاف في العلوم الطبيعية حول قانون التعليل . والاختلاف الوحيد الذي يوجد ينحصر في دائرة المؤمنين بما بعد الطبيعة [١] » .

ولكن نشوة هؤلاء المفكرين لم تدم طويلاً لأن القرن العشرين كان فاتحةً لكثير من الحقائق الجديدة في دنيا العلم الحديث ، والتي كادت أن تبطل تماماً التفسير الميكانيكي للكون . وعلى سبيل المثال فإن الراديوم عنصر مُشِعّ Radio - Active ، وإليكتروناته تتحول إلى حطام تلقائياً بعمل الطبيعة . وقد أجرى العلماء تجارب لا حصر لها لكي يصلوا إلى سبب إشعاع الراديوم . ولكن كل التجارب انتهت إلى الإخفاق . ونحن نجهل حتى اليوم: سبب تحطم إليكترون ما وخروجه عن نظامه النووي في الراديوم. وأيضاً.. فنحن جميعاً نشاهد المغناطيس وهو يشد نحوه الحديد . وقد أقام العلماء نظريات كثيرة لشرح هذه الظاهرة . ولكن أحدهم كتب يعلق على هذه النظريات قائلاً : إننا لا نعرف لماذا يشد المغناطيسُ الحديدَ نحوه « **ربما لأن الله أصدر الى المغناطيس أمراً بذلك** » !

والأمر لا ينتهي عند الراديوم والمغناطيس بل يتعداه إلى الأشياء التي أشير إليها في الماضي على أنها السبب في حدوث واقعة معينة ، فإن التحليل العميق قد دلّ على أن ذلك لم يكن إلا دراسة سطحية للوقائع . **فالحقيقة أننا نجهل تماماً سبب حتمية حدوث شيء ما على منوال معين ؛ حتى إننا لا نعرف : لماذا ننام حين نستلقي على السرير في الليل !!**

---

(١) Chamber's Encyclopaedia (1874) voe II, p. 691.

لقد اعترفوا الآن – بعد طول جدل – بأن قانون « التعليل » ليس حقيقة مطلقة بالمعنى الذي افترضوه في القرن التاسع عشر . والآن ... لقد عاد الباحثون إلى النقطة التي بدأوا منها مسيرتهم إلى « أن نظام العالم لا يخضع لقانون العلة والمعلول الناتج عن الصدفة المحضة ، وإنما هناك عقل ذو وعي يدبّر شؤون العالم بالإرادة » . إن رجوع العلم إلى هذا المبدأ دليل واضح على ما نقوله ، ولسنا في حاجة إلى دليل آخر بعدئذ .

إن مئات الكتب قد تناولت هذا الموضوع الشائك في النصف الأخير من هذا القرن ... وسنحاول فيما يلي توضيح القضية بإيجاز .

إن أول سؤال يخطر على بال العاقل الناظر في نظام الكون هو : من خلق هذا الكون ، ومن يدير هذا المصنع العظيم ؟

لقد كان الإنسان القديم يفهم أن هناك قوى كثيرة تتعاون في إدارة وامتلاك الكون ، وبكلمة أُخرى كان يعتقد أن ألوفاً من الآلهة الصغار يعملون تحت إشراف الإله الأكبر . ولا يزال الكثيرون حتى الآن يؤمنون بمثل هذه الأفكار . ولكن دنيا العلم قد رفضت هذه الأساطير عن الكون . لقد أصبحت نظرية ميتة ، وليست نظرية حية . **إن مثقفي اليوم الذين يزعمون التقدمية ويدعون العصرية يدينون بدين جديد هو الالحاد ، بدلاً من الدين القديم : الشرك .** وهؤلاء يعتقدون أن الكون ليس معرضاً لأعمال وجود ذي وعي ، ولكنه نتيجة لحادثة صدفية اتفاقية ، حيث إن وقوع حادثة ما تنتج عنه حوادث أُخرى تلقائياً .. وهكذا تبدأ سلسلة طويلة من الأسباب والوقائع ، وهذه السلسلة هي التي تدير الكون .

إن هذا التفسير عن الكون يقوم على أساسين : « قانون الصدفة » و « قانون التعليل » Laws of Chan ce, & Causation .

إن هـذا التفسير يقول لنـا إن الكون لم يكن له وجود قبـل (٢،٠٠٠،٠٠٠،٠٠٠،٠٠٠،٠٠٠) سنة . . وأنه لم يكن في الكون حينئذ شيء مثل النجوم والسيارات ، ولكن كانت هناك المادة التي لم تكن متجمدة، بل كانت منتشرة في كل مكان في الفضاء الفسيح في صورة الذرات الأولية : الأليكترونات والبروتونات . ويمكننا تشبيهها بغبار ذرات متناهيـة كانت تغمر الكون كله . وكانت المادة في حالة توازن تام حينئـذ دون أية حركة إطلاقـاً .

والرياضيون يقولون لنا : إن هذا التوازن كان بحيث إن أي خلل فيـه — مهما كان خفيفاً — كافٍ لتبديد ذلـك التوازن للأبـد . ويقولون أيضاً : إن ذلك الخلل كان سيكبر وينتشر حتمياً بعـد أن وقع للمرة الأولى . وإذا سلّمنا جـدلاً بوقوع الخلل الأول — الذي حرّك المادة — فإنهم يدّعون — بعد ذلك — أن جميع الحوادث التالية يمكن إثبـاتها بالرياضيات على أنها نتاج « الصدفة » . فالذي حدث كما يقولون : هو خلـل خفيف في المادة الراكدة تمامـاً كما يحدث عندما يُحرّك أحدنا بيده مياهاً راكدة في حوض من أحواض المياه ، فإن دوائر الحركة تكبر حتى تشمل الحوض كله .

ولكن من أوجد هذه الحركة الأولية في عالم المادة الراكدة؟ إنهم يقولون: لا علم لنا بذلك ؛ ولكن من المؤكد أن هذا الخلل قد حدث ، ثم استمر في الكبر والانتشار . وكانت النتيجة أن المادة بدأت تتقلص وتتجمع في مختلف الأمكنة ، وهـذه المواد المتجمعة المتقلصة هي التي نسميها اليوم بالنجوم والسيارات والمجرّات .

إن هذا التفكير للكون تقدمه لنا علومنا الحديثة . ولكن الحقيقة أنـه تفسير ساذج ضعيف؛ لدرجة أن للعلماء أنفسهم لم يتمتعوا يوماً بشرح صدورهم

له . وهذا التفسير يؤكد بكل يقين أيضاً أن علماءنا لا يعرفون ، مَن كان المحرِّك الأول للمادة ؟! ولكنهم بالرغم من ذلك ، يدعون أنهم قد اكتشفوا المحرك الأول الذي هو : « الصدفة » أو « قانون الصدفة » كما يسمونه !

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا تلقائياً هو : ما دام الكون لم يكن إلا مادة راكدة ركوداً رهيباً ، ولم يكن هناك شيء غير المادة الراكدة ، فمن أين أتت هذه « الصدفة » التي حرّكت الكون كله (؟) مع أن هذا الحادث الذي قد وقع لم تكن له أية أسباب موجودة ، لا داخل المادة ولا خارجها. وأطرف تناقض هنا هو أن هذا التفسير يقرر وجوب وجود واقعة قبل حدوث واقعة أخرى ، حتى يمكن إرجاع نسبة هذه الواقعة الاخيرة إلى التي سبقتها . ولكن بالرغم من هذا يبدأ هذا التفسير نفسه من واقعة لا سابقة لها ، فهذا هو الافتراض القائم بدون أي أساس ؛ وهو الافتراض الذي أقيم عليه البناء الكامل لنظرية الخلق الصدفي [الاعتباطي] للكون .

وشيء آخر : أن هذا الكون ، اذا كان مرهوناً بوقوع بعض المصادفات، فكيف نفسر اضطرار كل الوقائع والحوادث على نهج طرق معينة ثابتة نهجنا بالفعل ، ولولا هذا النهج لما كنا اليوم موجودين لنفكر في هذه القضايا . ألم يكن من الممكن أن يحدث شيء آخر نقيض تماماً لما حدث ؟ ألم يكن من الممكن أن ترتطم النجوم ببعضها وتتحطم ؟ وبعد حدوث « الحركة » في المادة ، أما كان من الممكن أن تبقى حركة مجردة دون أن تصبح حركة « ارتقائية » ، تجري في سلسلة مدهشة من العمل التطوري لإيجاد الكون الحالي ؟ ما هو ذلك المنطق الذي جعل النجوم والسيارات تتحرك بهذا النظام العجيب في الكون اللامتناهي ؟ وما هو ذلك المنطق الذي أوجد النظام الشمسي في ركن بعيد من أركان الكون ؟ وما هو ذلك

المنطق الذي أمكن بواسطته إجراء تغيرات مـدهشة أتاحت الفرصة لنشأة الحياة الإنسانية على كرة الأرض من العـدم ؟ وهذه التغيرات التي قد حدثت بالفعل على كرتنـا لا نعرف حتى الآن ما إذا كانت موجودة على ظهر سيّار أو نجم آخر من ملايين المجرات المنتشرة في أركان الكون . فما هـو المنطق الذي تسبب في إيجاد مخلوق حيّ من مادة بدون حياة ؟ هل لأحد أن يقدم لنا تفسيراً معقولاً لتوضيح: كيف وجدت الحياة على سطح الأرض.. ولماذا ؟ وتحت أي قانون تستأنف الحياة وجودها المدهش بهذا التسلسل ؟!

ثم ما هو ذلك المنطق الذي أوجـد في حيز مـــكاني صغير كل تلك الأشياء اللازمة لحياتنا ومدنيتنا؟ ثم ما هو ذلك المنطق الذي يعمل على إبقاء هذه الأحوال دائماً في صالحنا كما هي؟ أي صدفة واتفاق يتيحان حدوث هذه الإمكانات بهذا التسلسل والترتيب الجميل ، ثم استمرارها لملايين السنين بحيث لا يطرأ عليها أدنى تغير يخالف مصالح الإنسان ؟

هل لديكم أيها المعارضون تفسير واقعي تفسرون به صفة « اللزوم » التي التزمت بها وقائع مادية حدثت – بزعمكم – بمحض الصدفة ؛ ومن أين أتت بحنينها للارتقاء الدائم نحو الأصلح بطريقة غريبة ؟

كانت هذه إجابتنا على السؤال : « كيف جـاء الكون إلى الوجود ؟ » ثم يأتي السؤال التالي : « مَن يدير الكون ، مَن يحرّك هــذا المصنع العظيم بهذا النظام المدهش ؟ »

إن التفسير الميكانيكي يعجز هنا عن إقرار أن سبباً « **واحـــداً** » خلق الكون وأن هذا السبب نفسه يقوم بتدبير شؤونه في نفس الوقت . **إن هذا التفسير يقتضي وجود إلهين اثنين. فمن ناحية ، يقدّم لنا هذا التفسير نكتة**

« قانون الصدفة » Law Of Chance لشرح الحركة الأولى التي وقعت في المادة الراكدة؛ ولكن هذا التفسير من ناحية أخرى يعجز عن تقديم تفسير مقنع لتسلسل الحركة بواسطة تلك الصدفة نفسها التي وقعت « صدفــــة » للمرة الاولى . لذلك وجب البحث عن إله آخر لشرح هذا الجزء الأخـــير من التفسير الميكانيكي .

وذلك الإله هو « **مبدأ التعليل** » Principle Of Causation ، ويعني هذا المبدأ أنه بمجرد وقوع الحركة الأولى في مادة الكون الراكدة وُجدت في الكون تلقائيــاً سلسلةُ العلة والمعلول التي تحدث بمقتضاها كل وقائع الكون تماماً كما يحدث أن يصنع الأطفال صفّاً من قوالب الطوب المرصوص على الأرض ثم يسحبون الطوبة الأخيرة من نهاية السلسلة فيتداعى كل الطوب في السلسلة واحدة بعد الأخرى . فكل واقع يحدث لا يكمن سببه في قوى خفية وراء الكون ، بل هو نتاج طبيعي وحتمي لما قد سبقه من عمل القوانين الطبيعية التي لا سبيل إلى تغييرها أو التأثير فيها من الخارج . وهذه الوقائع السابقــة هي الأخرى كانت نتيجة لوقائع سبقتها .. وهكذا نشأت سلسلةٌ لا متناهية من العلة والمعلول ، لدرجة أن بعض العلماء ذهبوا إلى القـــول بأن الأسلوب الذي بدأ به تاريخُ الكون قد حدّد مسبقاً ، وبصورة قطعيـــة كل وقائع المستقبل على نحو آلي . فحــين تحدّدت للمرة الأولى صورة الحركة الأوليــة لم يعد في وسع « الطبيعة » إلا أن تسلك طريقة واحــدة للوصول إلى هدفها النهائي . فكأن تاريخ مستقبل الكون قــد تحدّد في نفس اليوم الذي ظهر فيه الكون إلى الوجود .

كان إقرار « مبدأ التعليل » ـ كقانون أساسيّ للطبيعة ـ من أهم أحداث القرن السابع عشر . ومن ثم بدأت حركة علمية كان جُلّ همّها أن تثبت أن

الكون كله « ماكينة واحدة » ... وقد وصلت هـذه الحركة إلى أوجها في النصف الثاني من القرن التاسع عشر. وكان ذلك هو عصر «العلماء المهندسين» Scientist - Engineers ، الذين بذلوا جهوداً جبارة لصنع « موديـــلات » ميكانيكية للطبيعة . وفي ذلك العصر نفسه أعلن هيلم هولتز Helm Holtes قولته المعروفة : « إن الهدف النهائي لجميع العـــلوم الطبيعية هو أن تنقل نفسها إلى الميكانيكا ! » [أي أن تصبح ميكانيكية] .

وقد أخفق العلماء في تفسير جميع ظواهر الكون في ضوء هذا المبدأ ، إلا أنهم كانوا يعتقدون أنه يمكن شرح الكون بالمصطلحات الميـــكانيكية . وكانوا يرون أنه يمكن بجهد بسيط إثبـــات أن الكون ماكينة كاملة تدور آلياً .

ومن الواضح أن هذه الأفكار تتعلق بحياة الإنسان بصفة حتمية . ولذلك فإن كل إضافة فكرية إلى مبدأ التعليل وكل تفسير ميكانيـــكي أدق لمظاهر الكون سيجعلان من المحال القول بأن الإنسان يتمتع بالخيار الكامل في هـــذه الحياة . فلذا كانوا يتساءلون: كيف يمكن استثناء الحياة الإنسانية من الخضوع لقانون التعليل الذي تخضع له الطبيعة كلها ؟ وكانت الفلسفات الميكانيكية التي راجت في القرنين السابع عشر والثامن عشر ، نتيجةً من نتائـج هذا النمط الفكري من التساؤلات . وحين اكتشفوا أن « الخلية الحية » Living Cell تتألف من العناصر الكيماوية ــ تماماً كالمادة الميّتة ــ تساءلوا على الفور: كيف يمكن أن تكون الأجزاء التي يتكـــوّن منها جسمنا ومخّنا غير خـاضعة لقانون التعليل ؟ وقد تمادوا في دعواهم فزعموا بمزيـــد من الصلف وبالأصوات العالية : أن أدمغة نيوتن وباخ Bach ومايكل أنجلو لم تختلف عن ماكينات الطباعة إلا في أنها كانت أكثر تعقيداً من الآلات الحديدية . وأنـه لم يكن

بوسع تلك الأدمغة العظيمة إلا أن تستجيب للمحركات الخارجية استجابـة كامـــلة !

ولكن علماء اليوم لا يعترفون بهذا النوع من قانون التعليل الصارم غير المعتدل . بل إن نظرية النسبية تشير إلى هذا القانون على أنه مجرد خدعة (Illusion) . وحتى قبل نهاية القرن التاسع عشر كان قد اتضح للعلماء أن ظواهر طبيعية كثيرة تبطل كل جهد لتعميم التفسير الميكانيكي من مثـــل ظواهر **الضوء وقوة الجاذبية .**

وحتى نهاية ذلك القرن كان البحث جاريا حول مـا إذا كان من الممكن اختراع ماكينة يمكنها إعادة أفكار نيوتن وعواطف باخ وآراء مايكل أنجلو؟! ولكن العلماء كانوا قد بدأوا يتنبهون إلى أن ماكينــــة ما لا يمكنها إعادة وقائع طبيعية مثل ضوء الشمع وسقوط التفاح .

وكان علماء الأمس قد أعلنوا أن الطبيعة لا تسلك إلا سبيلاً واحداً معيناً في سلسلة العلة والمعلول من الأزل للأبد . ولكن علوم اليوم تقرر أن ماضي الكون ليس مسؤولاً عن مستقبله بالدرجة التي كانوا يعتقدونها بالأمس . وقد **أجمعت أكثرية العلماء المعاصرين – في ضوء المعلومات الجديدة – على أن نهر العلم ينساب نحو « حقيقة غير ميكانيكية »** Non - Mechanical Reality .

فهاتان النظريتان [قانون الصدفة ومبدأ التعليل] **اللتان وجدتا في غمرة الكشوف العلمية في الماضي قد حُرِمتا اليوم من رأس مـــال اليقين . إن الكشوف الجديدة بدلاً من أن تدعم بنيانها تهزّهما أكثر فأكثر . والعـــلم نفسه يقوم بابطال النظريتين رويداً رويداً .**

وهكذا عاد الانسان إلى نفس « المحط » الذي بدأ منــــه رحلته عبر متاهات وبريق ما كان يظن أنه « يقين » و « جديد » !!

الفصل الرابع

حقائق جديدة
قضية الحياة بعد الموت

« إن الكشوف الحديثة قد فتحت آفاقا جديدة من الوقائع والحقائق التي يمكننا أن نقول في ضوئها : إن وجود الروح - ككائن مستقل وبقاءها بعد فناء الجسم - لم يعد قضية وجدانية . بل أصبح حقيقة يمكن إثباتها بالدليل التجريبي » .

كتب العلاّمة شبلي النعماني في الجزء الثاني من كتابه « الغزالي » تحت عنوان « المعاد أو أحوال ما بعد الموت » :

« مهما قيل ، فإن روح الدين هي عقيدة المعاد. فإن كل ما يتمتع به الدين من تأثير ، وكل ما للدين من أثر على أفعال الإنسان يرجع إلى قوة هذه العقيدة . وبقدر ما هي عظيمة الشأن بقدر ما هي عسيرة التصور . يقول شاعر عربي بدوي :

أموتٌ ثم بعثٌ ثم نشرٌ
حديثُ خرافةٍ ، يا أمَّ عمرو ! »

ويستطرد العلاّمة شبلي قائلاً :

« إن أهم المشكلات التي تعترينا في هذه المرحلة هي مشكلة بقاء الروح ، أي إثبات أن الروح وجودٌ خارجَ الجسم . والماديون [الملحدون] يزعمون أن الروح ليست شيئاً خارجياً ، فكما يحدث تأثير معيّن من تركيب عدة عقاقير في دواء واحد ، وكما تخرج موسيقى معيّنة بضرب الأوتار بترتيب معيّن ، كذلك يوجد بتركيب العناصر على نمط معيّن مزاجٌ خاص هو السبب في الإدراك والتخيُّل الفكري وهو ما نسميه « الروح » .

« وبعد إثبات الروح تأتي مشكلة أخرى في هـذه المرحلة وهي إثبات بقاء الروح ، أي أنها ستبقى في الوجود بعد فناء الجسم[1] ».

ثم ينقل آراء الإمـام الغزالي « عن المضنون الصغير والمضنون الكبير » ويعلق عليها قائلاً :

« إن بيان حقيقة الروح والأدلة التي أوردها بشأنها الإمام الغزالي مأخوذة من اليونان؛ وهي عين ما أقرّه أرسطو في خطبة«أثولوجيا». وقد ذكرها أبو علي بن سينا بأسلوبه الخاص بعـد تنميق وتلوين . ولكن الأمر الذي يثير الدهشة أن الإمـام الغزالي ترك أهم الأمور وأولها دون بحث وإثبات ، وذلك هو إثبات الروح . أما كون الروح جوهراً أو بدون جسم فقضايا فرعية. فأول قضية يجب إثباتها هي : هل الروح حقيقة لها وجود أم لا[2] » ؟

ثم يستطرد قائلاً :

« الأصل في هذا المبحث أن وجود الروح أمر يتعلق بالوجدان . فالفكر يؤكـد أن الإدراك والتعقل ليسا من خواص المادة . فالمادة ليست إلا شيئاً دون حسّ ودون حياة ودون عقل. إن المادة لا شأن لها بالأفكار الدقيقة والعلوم والفنون . بل هناك جوهر لطيف آخر هو المسؤول عن هذه المعجزات ، وذلك الجوهر هو : الروح » .

---

(١) كتاب « الغزالي » لشبلي النعماني . ص ١٧١ – ١٧٢ .

(٢) المصدر السابق . ص ١٧٤ .

ثم يقول :

« ولكن هذا الاستدلال وجداني . والحقيقة أن أبا علي بن سينا قد أورد أدلة طويلة لإثبات الروح ، ولكنها – شأنها شأن أدلة اليونانيين الأخرى – مجرّد لعب بالكلمات . ويمكن لأي منكر لحقيقة الروح أن يقول : « إن كل ما قُلْتَه هو إعادة نفس الدعوى بكلمات أُخرى . إنه ليس بدليل . فمن الممكن لنفس المادة بعد خضوعها لتركيبات خاصة أن تكون مظهراً لتلك المعجزات . فالحركات الغريبة التي تأتي بها الماكينات والنغمات المؤثرة التي تنتجها آلات الموسيقى : ما علاقتها بالروح » ؟ ...

« ونحن لن نستطيع إسكات لسان هذا المنكر . ولهذا السبب نفسه لم يقدم الإمام الغزالي أي دليل منطقي لإثبات الروح [١] » .

لقد أنهى العلاّمة شبلي النعماني بحثه هنا . وما الجديد الذي كان يمكن لنا توقعه – أكثر من هذا – من عالم ديني في كتاب يصدره عام ١٩٠١ ؟

ولكنني أريد أن أضيف إلى هذا أن الكشوف الحديثة قد فتحت آفاقاً جديدة من الوقائع والحقائق التي يمكننا أن نقول في ضوئها : إن وجود الروح – ككائن مستقل وبقاءها بعد فناء الجسم – لم يعد قضية وجدانية، بل أصبح حقيقة يمكن إثباتها بالدليل التجريبي .

لقد كشف لنا العلم أن الجسم يتركب من « خلايا » متناهية في الوجود ، ويبلغ متوسطها في جسم الإنسان : ١٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠ خلية تقريباً.

---

(١) المصدر السابق . ص ١٧٥ .

وهذه الخلايا تتحطم وتفنى في كل آن . والغذاء يعوض أجسامنا عن تلك الخلايا التي نفقدها كل يوم . فكأن الجسم بناء يتألف من مئات الملايين من قوالب الطوب ، وهو يستبدل الطوب بطوب آخر في كل لحظة .

فإذا كانت الروح مظهراً من مظاهر الجسم فقط وجب أن تطرأ عليها التغيرات بمجرد حدوث التغيرات على الجسم ، تماماً كما تتأثر ماكينة بأكملها بمجرد أن ينكسر أحد تروسها ، وكما تتأثر آلة الموسيقى بتكسّر وتر واحد من أوتارها . ولكن هذا لا يحدث فيما يتعلق بالروح . **فالروح إذن شيء آخر غير الجسم، ولها وجودها المستقل** . ولذلك وصف أحد العلماء الوجود الإنساني بشيء مستقل لا يتغير رغم خضوعه للتغيرات المستمرة . إنه يقول:

« الشخصية هي عدم التغير في عالم التغيرات [١] » .

إن هذا الرأي يدعمه ـ أكثر ـ ذلك الكشف الهام في علم النفس الذي نسميه باللاشعور أو ما وراء الشعور والذي يحتوي على الجزء الأكبر من المخ الإنساني المختزن للمعلومات . وقد أصبح من المسلمات الآن أن الأفكار التي يختزنها اللاشعور تبقى فيه حتى نهاية الحياة . وكما يقول« فرويد »في محاضرته الحادية والثلاثين :

« إن قوانين المنطق ، بل أصول الأضداد أيضاً لا تحول دون عمل « اللاشعور » Id ؛ وإن الأماني المتناقضة موجودة فيه جنباً إلى جنب دون أن تقضي واحدة منها على الأخرى ؛ ولا شيء في اللا شعور يشبه أن يكون « رفضاً » لشيء من هذه المتناقضات . إننا نتحيّر لما نشاهده من أن اللا شعور يبطل رأي فلاسفتنا القائلين

---

(١) « Personality Is Changelessness In Change » .

بأن جميع أفعالنا العقلية الشعورية تتم في زمن محدد ، ولكن لا شيء في اللاشعور يطابق الفكر الزمني ، ولا يوجد فيه أي رمز لمضي الوقت وسريانه ، وهي حقيقة محيرة . ولم يحاول الفلاسفة أن يتأملوا حقيقة أن مضي الزمن لا يحدث أي تغيير في العمل الذهني ؛ فإن الدوافع الحبيسة (Conative impulses) التي لم تخرج قط عن اللاشعور ، وحتى التأملات الخيالية التي دفنت في اللاشعور : تكون أزلية في الحقيقة والواقع ، وتبقى محفوظة لعشرات السنين ، وكأنها لم تحدث إلا بالأمس »[1] .

إن كون عمل اللاشعور مستقلاً عن حدود الوقت [الزمان] يبين أن اللاشعور وجود منفصل عن الجسم لأن من المسلمات التي أجمع عليها كل العلماء أن الجسم خاضع لقوانين الزمان والمكان [البعد] ، وكل مظاهر الجسم تقع في نطاق هذه الحدود . **فلو كانت الروح مظهراً من مظاهر الجسم لكان من الواجب أن تخضع هذه الروح لقوانين الزمان والمكان مثل خضوع الجسم لها . وحيث ان التجربة تثبت قطعياً أن هذا غير صحيح بالنسبة للروح دون الجسم ، فان الذي لا بد من قبوله هو أن الروح وجود آخر غير الجسم تختلف من نوعيته ، ومنفصل في وجوده** . إن علاقة الجسم بالروح تختلف تماماً عن علاقة النغمة الموسيقية بآلتها ، والحركة بماكينتها ، وإلا لانسحبت عليها نفس القوانين التي تخضع لها النغمة والحركة . ولكن القوانين التي تنسحب على الجسم لا تنسحب على الروح .

●

---

(١) New Introduetory Lectures on psycho - Analysis, London 1949, P 99 .

والأمر الثاني الذي أودّ الإشارة إليــــه هو نتائج البحوث الروحية Psychical Researches التي تثبت وجود الحياة بعد الموت على صعيد التجربة والمشاهدة العلمية المجردة . **والشيء الذي يثير الاعجاب أكثر – من وجهة نظرنا – هو أن هــــذه البحوث الروحية لا تثبت البقاء المحض للروح فحسب ، وإنما تثبت بقاء عين الشخصيات التي كنّا على عـــلم بوجودها قبل موتها .**

إن الإنسان يتمتع بخواص عديدة منذ الأزل ، لكنها لم تفحص علمياً إلا في العصر الحاضر . وعلى سبيل المثال تعتبر (الرؤيا) من أقـــدم خصائص البشر ، إلا أن أسلافنا كانوا يجهلون الحقائق النفسية التي اكتشفتها الدراسات الجديدة لحقيقة الرؤي ؛ وهناك ظواهر أخرى كثيرة أجريت حولهـــا الإحصاءات ودرست من الناحية العلمية . وقـد انتهينا إلى نتائج هامة جداً عن طريق هــــذا النوع من الدراسات . وإحدى هذه الدراسات تسمَّى « البحوث الروحية » ، وهي في أصلها فرع من فروع عـلم النفس الحديث ، وهذه البحوث تعني بالدراسة التجريبية للخواص غير العادية لدى الإنسان .. وقد أقيم أول مركز لهذا النوع من الدراسات سنة ١٨٨٢ م ، وقد بدأ عمله سنة ١٨٨٩ م بعـــد إجراء اتصالات واسعة النطاق شملت سبعة عشر ألف شخص من الإنجليز. وهذا المركز لا يزال موجوداً تحت اسم « جمعية البحوث الروحية » Society for Psychical Researches وتوجـــد مراكز مختلفة تتخصص في هــذا النوع من الدراسات في مختلف البلدان . وقد أثبتت هذه الدراسات أن شخصية الإنسان تظل باقية بعد موت جسمه في صورة من الصور التي يكتنفها الغموض .

وقد اضطر كثير من الباحثين في الدراسات النفسية إلى التسليم بالحياة بعد

الموت كحقيقة واقعة بعد أنقاموا بدراسات محايدة لمختلف الشواهد والأمثلة. ومنهم على سبيل المثال : البروفيسور س. ج. دوكاس C. J. Ducasse الذي بحث الجوانب النفسية والفلسفية من نظرية الحياة بعد الموت في الباب السابع من كتابه . وعلى الرغم من أن البروفيسور دوكاس لا يؤمن بالحياة بعد الموت – كعقيدة دينية – إلا أنه يعترف بأن هناك شواهد تؤكد بقاء الحياة بعد الموت بعيداً عن كونه عقيدة دينية . وفي نهاية الباب المذكور يقول بعد ذكر تجارب البحوث الروحية :

« **لقد قام رهط من أذكى علمائنا وأكثرهم خبرة بمطالعة الشهادات المتعلقة بالمسألة ، وفحصوها بنظرة نقد ثاقبة ، وقد توصلوا آخر الأمر إلى أن هناك شواهد كثيرة تجعل فكرة « بقاء الروح » نظرية معقولة ، وممكنة الحدوث .. وهم يرون أنه لا يمكن تفسير تلك الشواهد إلا على هذا النحو** . ومن هؤلاء الكبار الذين قاموا بهذه البحوث نستطيع أن نذكر : الأساتذة ألفريد راسل واليس، والسير وليام كروكس ، و ف. و. هـ. مايرز ، وسيزار لومبرازو ، وكميل فلاماريون ، والسير أوليفر لودج ، والدكتور ريتشارد هوجْسَنْ ، وهنري سيدويك ، والبروفيسور هيسلوب » (*) .

(*) لهذه الفكرة (فكرة مشاهدة الروح) أنصارها الكثيرون من العلماء العرب والمسلمين ، وكان الأساتذة طنطاوي جوهري ، ومحمد فريد وجدي ، وأحمد فهمي أبو الخير ، وعلي عبد الجليل راضي ، والدكتور رؤوف عبيد وغيرهم من طلائع المؤمنين بهذه الفكرة ، وقد أصدر الأستاذ فريد وجدي مجلة روحية هي مجلة (الحياة) كما أصدر مجلداً ضخماً من أربعة أجزاء يدعم فكرة خلود الروح ووجودها في عالمنا المادي ، وهذا الكتاب الكبير عرف باسم : « على أطلال المذهب المادي» كما أصدر الدكتور رؤوف عبيد كتاباً كبيراً في نفس الموضوع هو كتاب «الإنسان روح لا جسد » .. (المراجع) .

ويستطرد الدكتور دوكاس قائلاً :

ويتضح من هذا أن عقيدة بقاء الحياة بعد الموت – التي يؤمن بها الكثيرون منا كعقيدة دينية – ليس من الممكن أن تكون واقعاً فحسب ، وإنما لعلها هي الوحيدة من عقائد الدين الكثيرة التي يمكن إثباتها بالدليل التجريبي . ولو صحّ هـذا فمن الممكن أيضاً أن نجد معلومات قطعية في هذا الموضوع بغض النظر عن الأفكار التي افتراها رجال الدين عن نوعية الحياة بعد الموت. ولن نحتاج حينئذ إلى الإيمان بالوجهة الدينية من هذه النظرية » [1] . [التشديد مضاف]

إن البروفيسور دوكاس ينكر الجانب الديني من قضية بقاء الحياة بعد الموت رغم اعترافه بها كحقيقة واقعة . وهذا لا يعدو أن يكون محاولة منه لإشباع أنانية نفسه .

فالحقيقة أنه ما دامت الحياة ستستأنف وجودها بعد الموت فلا مجال لقبول أي تفسير سوى ذلك التفسير الذي يقدّمه الدين [*] .

---

(١) A Philosophical Seruitiny of Religion P. 412 .

(*) في كتاب « الإسلام يتحدى » ناقش المؤلف بالتفصيل وبالطرق التجريبية القضايا الغيبية كلها ، ونجح في إثباتها عن هذا الطريق (المراجع) .

الفصل الخامس

الدين والعلم

« إننا نستطيع أن نقول بكل قوة : إن الله يجري إرادته في الكون بواسطة هذه القوانين التي اكتشفت علومنا الحديثة بعض أجزائها فقط حتى الآن » .

* * *

« إن العارف بالله ـ المؤمن بالدين ـ يمكنه أيضا أن يعيش ـ كحقيقة ـ في هذه الدنيا » .
[البروفيسور إيدينجتن]

* * *

« النتيجة التي انتهت اليها الدراسة العلمية ـ وهي أن الحقيقة النهائية للكون « عقل » ـ هذه النتيجة من حيث نوعيتها تصديق للدين ودحض للإلحاد بكل تأكيد » .

إن الدين والعلم كلمتان فضفاضتان .

إن « الدين » نظرة معينة إلى الحياة ، وهو يعني نظاماً محدداً يقوم على أساس تلك النظرة المعينة إلى الحياة .

و « العلم » Science هو دراسة العالم المحسوس الذي يخضع – أو يمكن أن يخضع – لتجاربنا ومشاهداتنا .

وبهذا الاعتبار فالدين والعلم كلاهما مجال لموضوعات واسعة ؛ ودائرة كل منهما تختلف كثيراً عن الآخر . ولن أتناول هنا تفاصيل موضوعات الدين والعلم ، لأن موضوع هذا الباب هو ذلك الصدام المفترض – أو الحقيقي – الذي وقع بين العلم والدين ، والنتائج التي ظهرت عقب ذلك الصدام . إنني أريد أن أتحدث بإيجاز عن الدعوى التي تردد أن اكتشافات العلم قد دمّرت بنيان الدين .

إن الصدام التقليدي بين الدين والعلم نتاج من نتاج القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، وهما العصر الذي ظهرت فيه العلوم الحديثة . وبعد ظهور هذه الاكتشافات الحديثة بدأ كثير من الناس يظنون أنهم لم يعودوا في حاجة إلى الإيمان بالله ..

لقد كان من أهم دواعي الإيمان بالله استحالة تفسير الكون بدون الاعتماد على خالق ومدبر. ولكن معارضي الدين زعموا أنه لا ضرورة لفرضية (الإله)

لتفسير الكون ، لأنهـــم يستطيعون تفسير الكون بكل مراحله في ضوء الاكتشافات الحديثة دون اللجوء إلى الإله .

وهكذا أصبح (الإله) في نظرهم فكرة « غير ضرورية » وكل فكرة غير ضرورية : لا تقوم على أساس !!

وعلى الرغم من أن هذه الدعوى كانت ضعيفة مهلهلة حـين ظهرت لأول مرة ، إلا أن علوم اليوم قد اعترفت بطرق مباشرة أو غير مباشرة ، بأنها لا تملك الأدلة الشافية التي تكفي لمثل هذا الادعاء غير العادي .

مـا هي تلك الاكتشافات التي جعلت الناس يعتقدون بعدم جدوى الإله وبانتهاء الحاجة إليه . إن أهم هذه الاكتشافات هي مـا سبق أن تحدثنا عنه من أن العلم قد توصل إلى أن الكون خاضع لقوانين معينة .

كان الإنسان القديم يرى ببساطة أن الإله هو الذي يقف وراء كل مـــا يحدث على الأرض وخارجها. ولكن الوسائل العلمية وأساليب البحث الحديثة قد كشفت لنا عن السبب الكامن وراء كل حادث يقع ، ويمكننا معرفة ذلك السبب بإجراء التجربة . فمثلاً توصل نيوتن خلال مشاهداته إلى أن كل أجرام السماء من سيارات ونجوم مقيدة بقوانين ثابتة ، وأنهـا تتحرك بموجب تلك القوانين . أمـا بحوث داروين فقد أبانت له أن الإنسان لم يوجد نتيجة عملية خلق مباشر ، وإنما هو المظهر الأعلى لحشرات وكائنات بدائية ، وأنـه جاء إلى الوجود نتيجة عمل القوانين المادية لحقب سحيقة في الارتقاء نحو الأفضل .

وبعد إجراء هـــذا النوع من الدراسات اتضح أن جميع وقائع الأرض والكون مقيدة بنظام واحد معلوم ، وقد سمي هـذا النظام بقانون الطبيعة

Law of Nature . وكان عمل قانون الطبيعة قوياً بحيث أمكن التنبؤ بآثاره مسبقاً .

وكان هذا الاكتشاف يعني أن الكون الذي كنا نعتقد بأنه يخضع لأحكام الإله ، إنما هو تابع لقوانين مادية وطبيعية . وقد ازداد العلماء والفلاسفة إيماناً ويقيناً بالنظرية الجديدة بعد استخدام تلك القوانين وظهور بعض النتائج من تجاربهم . وقد تبع هذا نوع غريب من الجنون والصلف . فقال الفيلسوف الألماني «كانت» : «إيتوني بالمادة وسوف أعلمكم كيف يُخلق الكون منها» . وأعلن « هيجل » Haeckel : « إنني أستطيع خلق الإنسان لو توفر لي الماء والمواد الكيماوية والوقت » . وصرخ « نيتشه » : «لقد مات الإله ، الآن» !

وهكذا زعموا أن خالق الكون لم يكن « وجوداً ذا عقل وإرادة » ، بل إن الكون مادي من أوله إلى آخره .. وأن كل حركات الكون ، وكل مظاهره — سواء اختصت هذه المظاهر بالأشياء الحية أو الجمادات — ليست إلا عملاً مادياً أعمى . فالكون الذي اكتشفه العلم لم يوجد في أي جزء من أجزائه أي أثر للخالق الذي تستند إليه كل الأديان في فلسفتها للحياة . وإذا كان الحال كذلك ، فما الذي يجعل العلم يؤمن بالإله ؟

إن الأبطال الأول لهذه الاكتشافات كانوا جميعاً من المؤمنين بالله ، إلا أن خلف هذا السلف الصالح وجدوا أن هذه الاكتشافات قد أبطلت كل معنى لوجود الخالق ! وكانوا يرون أن العلل المادية ما دامت تكفي لتفسير وقائع الكون المادي فما الداعي إذاً لافتراض إله خارجي ؟ واستطردوا قائلين : إن الإنسان كان قد افترض في حالة جهله أن الإله هو الذي يدير كل شيء في الكون لأنه لم يكن قد اخترع المنظار بعد، ولم تكن الرياضيات قد تقدمت، ولم يكن في استطاعة الإنسان أن يعرف كيف تشرق الشمس وكيف تغرب.

ولكن دراسة الفلك الحديثة أسفرت عن وجود نظام الجاذبية الكوني الذي يحرك كل الأجرام السماوية ، كبيرها وصغيرها . فــلا ضرورة الآن للإيمان بهذا الإله .

وهكذا فــإن كل تلك الأشياء التي كانوا يفترضون وجود قوى خفية وراءهــا قد اكتشفوا الآن وجود قوى معروفة وراءهــا تعمل وفق قانون « العلة والمعلول » . فالآن ، وبعد معرفة الأسباب الطبيعية لتلك المظاهر قد انتهت حاجتنا تلقائياً لافتراض وجود الإله أو لافتراض قوى ما فوق الطبيعة . « فإذا كان قوس قزح هو انعكاس الأشعة الشمسية على المطر ، فالباطل كلياً أن نقول إن (قوس قزح) آية من آيات الله في السماء » . يقول هذا هكسلي ثم يعلق عليه بلهجة تمتلىء باليقين الشديد قائلاً :

« إذا كانت الوقائع نتيجةً لعلــل طبيعية فهي بالطبع ليست نتيجة لعلل ما فوق الطبيعة » .

وبكلمة أخرى : لو لم تكن علل ما فوق الطبيعة موجودة وراء الوقائع في حقيقة الأمر فكيف يجوز لنا أن ننسبها إلى وجود فوق الطبيعة ؟

أين يكمن الضعف في استدلال معارضي الدين ؟ إننا نستطيع فهم هــذا الضعف من المثال البسيط التالي : قد يشاهد أحــد الرجال قاطرةً تجري على قضبان الحديد فيتبادر إلى ذهنه سؤال : كيف تجري هذه العجلات الثقيلة ؟ وبعد قليل من المشاهدة يصل الرجل إلى آلات وتروس القاطرة فيرى أن أن العجلات الثقيلة تتحرك بتحرك التروس والآلات . أفبعد هذا الاكتشاف يحق لهذا الرجل أن يزعم أن آلات القاطرة وحدها هي السبب في تحرك عجلاتها . ومن الواضح أن الأمر ليس كذلك بهذه البساطة ، لأنــه يجب أن

نعترف بالسائق الذي يدير الماكينات ، ثم بالمهندس الذي صنع تلك الماكينات وأوجد القاطرة . فلا وجود في الحقيقة للقاطرة ، ولا يمكن إحداث الحركة في آلاتها بدون عمل المهندس والسائق. **فالماكينات الداخلية ليست هي الختام في قصة القاطرة بل إن الحقيقة النهائية هي « العقل » الذي أوجد تلك الماكينات ، ثم أدارها وحركها وفق إرادة مرسومة .**

لقد أصاب عالم مسيحي حين قال : « **إن الطبيعة لا تفسر الكون ، وإنما هي نفسها في حاجة إلى تفسير** » .

« Nature does not explain, she is in need of explanation » .

وذلك لأن الطبيعة مجرد حقيقة من حقائق الكون ، وليست تفسيراً له .

ولنفهم هذا من مثال آخر :

إن الكتكوت يعيش أيامه الأولى داخل قشرة البيضة القوية ، ويخرج منها بعد ما تتكسر مضغة لحم . لقد كان الإنسان القديم يؤمن بأن الله أخرجه ، ولكننا شاهدنا اليوم – بالمنظار – أنه في اليوم الحادي والعشرين يظهر قرن صغير على منقار الكتكوت يستعمله في تكسير قشرة البيضة لينطلق خارجاً منها ثم يزول هذا القرن بعد بضعة أيام من خروجه من البيضة.

هذه المشاهدة كما يزعم المعارضون أبطلت الفكرة القديمة القائلة بأن الإله يُخرج الكتكوت من البيضة إذْ قد رأينا يقيناً أن قانون « الواحد والعشرين يوماً » يُحْدِث هذه العملية. **والحقيقة أن المشاهدة الجديدة لا تدلّنا إلا على حلقات جديدة للحادث ، ولا تكشف عن سببه الحقيقي ، فقد تغير الوضع الآن فأصبح السؤال لا عن (تكسر البيضة) بل عن (كيف يظهر القرن) ؟ إن السبب الحقيقي سوف يتجلى لأعيننا حين نبحث عن العلة**

التي جاءت بهذا القرن، العلة التي كانت على معرفة كاملة بأن الكتكوت سوف يحتاج إلى هـــذا القرن ليخرج من البيضة ، فنحن لا نستطيع أن نعتبر الوضع الأخير (وهو مشاهدتنا بالمنظار) إلا أنـــه « مشاهدة للواقع على نطاق أوسع » ، ولكنه ليس تفسيراً له .

إن الاكتشاف الذي اعتبره معارضو الدين بديـلاً للإله يمكننا أن نفسره بسهولة بأنه « أسلوب عمـل الطبيعة » . إننا نستطيع أن نقول بكل قوة : إن الله يُجري إرادته في الكون بواسطة هـذه القوانين التي اكتشفت علومنا الحديثة بعض أجزائها فقط حتى الآن . لنفترض أن رجال الدين يعتقدون أن الله يأتي بالمد والجزر في البحار.. ثم يأتي عالم من علمائنا الجدد ويقول لنا: إن المد والجزر له سببان هما قوة الجاذبية في القمر ، والتكوين الجغرافي أي الوضع الجغرافي لأجزاء الأرض البرية والبحرية (Geographical Configuration) إننا سنقبل هـــذا الكشف العلمي بكل سرور فليس هناك من داعٍ يقتضي رفض هذا الكشف لأنه لا يؤثر إطلاقاً على صواب عقيدتنا . إننا نسلّم بأن حدوث المد والجزر يقتضي قوة الجاذبية القمرية ويقتضي وضعاً جغرافياً معيناً لأجزاء الأرض . ولكن ما هي قوة الجاذبية ، ومـــا هو الوضع الجغرافي الأرضي ؟ إنهما – أيضاً – من خلق الله، والله يستخدم هذه الوسائل لتنفيذ إرادته وفعله ، ولولا استخدامه لهـــذه الوسائل والأسباب المحدَّدَة لتنفيذ مشيئته لحلّت الفوضى في الكون ولانعدم النظام . فالله سبحانه وتعـــالى لا يزال هو السبب الأول والحقيقي لطوفان البحار .

وقد تكررت الادعاءات نفسها في حقل علم الحياة فزعم بعضهم أن العلم الحياتي لم يعد في حاجة إلى فرضية مـــا وراء الطبيعة . وبكلمة أخرى :

لا ضرورة للإله لتفسير قضية الحياة .. وذلك لأن المطالعة الحديثة تؤكد أن الحياة حصيلة تلقائية لقوى مادية ثلاث هي :

(أ) استمرار التوالد والتناسل Reproduction

(ب) ظهور الفروق بين المولودين Variation

(ج) تطور كل هذه الفروق على حدة بمرور الأيام Differential Survival

فبافتراض أن قواعد داروين حول الانتخاب الطبيعي قــــد انطبقت على مظاهر الحياة يطالبنا المعارضون بأن نرفض النظريات الدينية . **ولكن لسوء حظ المعارضين لا يزال الأمر غير يقيني فيما إذا كانت أنواع الحياة قد ظهرت إلى الوجود بنفس الأسلوب الذي يزعمــــه علماء الارتقاء** أم لا . ولو أننا سلّمنا بهذا الزعم – دون جدل – فإنـــــه حتى بعد هذا التسليم لن تزعزع العقيدة الدينية ذلـــــك لأن أنواع الحياة لو ظهرت – فرضاً – إلى الوجود نتيجةً لعمل ارتقائي فإننا حينئذٍ أيضاً سنقول بنفس الدرجة من القوة واليقين. **إن هذا هو أسلوب الله في الخلق ، وهو ليس نتيجة عمل مادي أعمى .**

والحقيقة التي يمكننا إثباتها بقليل من الجهد والعناء هي أن **الارتقاء الميكانيكي** ليس إلا « **ارتقاءً خلقياً** » Creational Evolution . **والذين يعارضون الدين باسم العلم لن يجدوا بعد هذا أساساً واقعياً لرفض هذه النظرية .**

والأمر لا يقف عند هذا الحد ، فالحقيقة أن العلم قد فَقَدَ يقينه السابق بدخوله أبواب القرن العشرين الواسعة . لقد حلّ أينشتاين محل نيوتن ، كما أن العالمين بلانك وهايزن برج قد أبطلا نظريات لابلاس . لقد فقد معارضو الدين اليوم تلك المكانة التي كانت تسمح لهم بمثل هذه الادعاءات التي لا يزالون

يرددونها زاعمين أن لهـــا أساساً علمياً . إن نظرية النسبية وقاعدة الميكانيكا الكمية (كـُوانتمْ) قد أوصلتنا العلماء إلى الاعتراف بأنه لا يمكن الفصل بين المشاهِد والموضوع المشاهَد ... ومعناه أنــه ليس في إمكاننا إلا أن نشاهد بعض المظاهر الخارجية من أي شيء ، وأننا لا نستطيع أن نشاهد حقيقته الجوهرية . إن الثورة التي وقعت في الحقل العلمي في هذا القرن قـــد أثبتت أهمية الدين من وجهة نظر العلم نفسه .

إن ما يشار إليه بالثورة في دنيا العلم هو أن نظرية نيوتن التي ظلت تسود العالم على امتداد قرنين من الزمان كانت نظـرية غـير كاملة في ضوء الدراسة الجديدة للوقائع . وبالرغم من أن نظرية متكاملة لم تحل بعدُ محل نظرية نيوتن الناقصة **إلا أنه من الواضح أن المقتضيات الفلسفية للتفكير العلمي الجديد تختلف عن مقتضيات التفكير القديم.** والقول بأن الدراسة العلمية هي وحدها طريق الوصول إلى الحقائق أصبح الآن ادعاءاً غـــير مقبول . وأصبح كبار العلماء يصرون الآن على أن العلم لا يعطينا إلا معرفة جزئية عن الحقيقة .

وهـــذا التغير جديد على موقف العلم . فقبل مائة سنة فقط أعلن تيندال Tyndall في « خطبة بلفاست » Belfast Address : **« إن العلم يكفي الآن – وحده – لمعالجة جميع شئون الانسان » !**

لقد أقام العلماء هذا النوع منالنظريات زاعمين أن الحقيقة ليست إلا المادة والحركة Matter and Motion . ولكن كل الجهود الرامية إلى تفسير الكون بمصطلحات الحركة والمادة قد انتهت إلى الإخفاق التام . وكانت هذه الجهود في أوجها عند نهاية القرن الثامن عشر حين وجد لابلاس Laplace من الجرأة أن يعلن : « إن العالِم العظيم الذي سيتمكن من معرفـة انتشار الذرات في

السحب السديمية Nebulae الأولية سيكون في استطاعته أن يتنبأ بكل مستقبل الكون وأحداثه » ! وكان العلماء حتى ذلك العهد لا يزالون يعتقدون أن نظرية نيوتن هي مفتاح جميع العلوم .

وقد اتضح خطأ نظرية نيوتن – لأول مرة – حين حاول العلماء شرح ظاهرة (الضوء) بالمصطلحات المادية . وهذه الجهود أوصلتهم إلى « عقيدة » **الأثير** Ether الذي كان عنصراً مجهولاً وغير قابل لشرح خصائصه . وقد استمر العلماء يؤمنون بهذه العقيدة لعدة أجيال . وقد قدمت الرياضيات ما لا يحصى من المعجزات لتكوين تفسير مادي لظاهرة (الضوء) . ولكن بعد نشر تجارب ماكسويل Maxwell أصبح (الضوء) مشكلة عويصة ، لا يعرف العلماء كيف يفسرون معمياتها . وكانت تجارب ماكسويل تبين أن (الضوء) ليس كائناً مادياً ، وإنما هو ظاهرة برقية – مغناطيسية Electromagnetic Phenomenon . وقد استمرت هوة الفراغ في الاتساع بين النظريتين حتى جاء اليوم الذي انكشف فيه على العلماء أنه لا شيء في نظريات « نيوتن » ما يمكن اعتباره « مقدساً » ! وبعد جهود طويلة استهدفت إثبات أن الكهرباء عنصر ميكانيكي [مادي] ، وبعد تذبذب طويل اعترفوا بأن الكهرباء من **« العناصر غير القابلة للتحويل »** Irreducible Elements .

إن هذا الاعتراف يبدو بسيطاً ، ولكنه في حقيقته كان حكماً تاريخياً خطيراً ذا مغزى غير عادي وآثار بعيدة المدى .

« نحن نعرف حقيقة كل شيء ! » .. هكذا كان اعتقادنا ونحن نشاهد الأشياء بمنظار نظرية نيوتن . لقد كنا نؤمن بأن « المادة » هي كمية الجسم ومقداره . وكنا نظن أن الحركة مصدر الطاقة ، وما إلى ذلك . وكان

اعتقادنا أننا نعرف بالتأكيد « الطبيعة » التي نتحدث عنها . ولكن اتضح لنا بعد دراسة ظاهرة « الكهرباء » أنه لا يمكن التوصل إلى طبيعة هــذه الظاهرة ، لدرجة أن جميع المصطلحات المعروفة قـد أخفقت في تفسير هذه الظاهرة . **وكل ما نعرفه الآن عن « الكهرباء » هو أنها عنصر يؤثر في آلات الوزن والقياس . وبهذا نستطيع أن نفهم خطورة هذا الاعتراف إنـه يعني أن علم «الطبيعة» قد اعترف بـ « وجود » Entity لا نعرف عنه إلا هيكله الرياضي !!**

وقد اعترفوا « بموجودات » أخرى على هذا النهج ؛ وأصبح من المسلّمات أن هـــذه **الموجودات** [العناصر] **المجهولة** تقوم بنفس الدور الذي كانت **المادة القديمة المعروفة** تقوم به في صياغة النظريات العلمية . وقـد أصبح من الحقائق القطعية أننا لا نستطيع أن نهتدي إلى الوجود الأصلي لأي شيء فـيما يتعلق بعلم الطبيعة ، وأن كل ما يمكننا عمـله هو بذل الجهد لمعرفة الهيكل الرياضي Mathematical Structure لذلك الشيء . **وقـد سلّم العلماء على أعلى مستوى اليوم بـأن الزعم بأننا نستطيع أن نشاهد الأشياء في صورها النهائية لم يكن إلا وهماً وسراباً .**

ويعتقد البروفيسور إيدينجتن Eddington أن معرفـة الهيكل الرياضي للشيء هي المعرفة الوحيدة التي يمكن لعلم الطبيعة أن يمنحنا إياها .

« .. بقطع النظر عن الجوانب الجمالية والأخلاقية والروحانية ، فإن المادة والجوهر والبعد والوقت وغيرها من تلك الأشياء التي كانت تُعتبر خاضعة لعلم الطبيعة وحده قد أصبح من المتعذر علينا معرفة خصائصها بقدر ما كان متعذراً معرفة خصائص الأشياء غير المادية . إن عـــلم الطبيعة الجديد لم يعد في وضع يسمح له بالمعرفة المباشرة

لخصائص الأشياء. إن حقيقة هذه الأشياء خارجة عن حدود الإدراك، ونحن نصل إلى حقائقها بواسطة الصور الذهنية . وأية صورة ذهنية لا يمكن أن تعكس لنا تصوراً غير موجود البتة في الذهن . وهكذا لا يمكن للطبيعة – باعتبار مجال عملها الحقيقي – أن تتناول الخصائص الخارجة عن حدود الإدراك ، بل هي لا تقوم إلا **بالدراسة بواسطة الآلات** Pointer Reading التي يمكن لعلمنا الإحاطة بها . صحيح أن هذه الدراسة تصوّر لنا بعض الخصائص لعمل الكون إلا أن معلوماتنا الأصلية تتعلق بالدراسة عن طريق الآلات ، وليست بالخصائص نفسها. إن علاقة (الدراسة عن طريق الآلات) بالخصائص الحقيقية للأشياء تشبه علاقة رقم التليفون بصاحبه »[١] .

« إن حقيقة أن (العلم محدود بالمعلومات عن هيكل الأشياء) حقيقة ذات أهمية قصوى . إنها تؤكد أن الحقيقة الكاملة لا تزال غير معروفة . وفي ضوء هذه الحقيقة لا يمكن الزعم – الآن – بأن أحاسيسنا أو تجربة اتصال النبي بالله : ليس لها مثيل موضوعي (خارجي) Objective Counterpart وذلك لأنه من الممكن جداً أن يكون هناك مثيل خارجي لهذه الأحاسيس أو لتجربة النبي أو العارف بالله . ولم يعد من الممكن أن يقال عن أحاسيسنا الدينية أو الجمالية إنها مجرد ظواهر خادعة Illusory phenomena كما كانوا يقولون بالأمس صلافةً وتبجحاً . وبإيجاز : « **إن العارف بالله المؤمن بالدين يمكنه أيضاً أن يعيش – كحقيقة – في هذه الدنيا** »[٢] .

[التشديد مضاف]

---

(١) « The Domain of Physical Science », essay in Science, Religion and Reality.

(٢) The limitations of Science, pp 138 — 142.

إن الفلاسفة العلميين قد بدءوا يقدمون هـذا النوع من التفسيرات وبكلمات « مورتون وهايت » Morton White :

« إن العلماء — الفلاسفة — في القرن العشرين قد بدأوا حرباً صليبية جديدة وأهمهم وهايت هيد ، وإيدينجتن ، وجيمس جينز » .

إن فكر هؤلاء العلماء ينفي بكل صراحة التفسير المادي للكون ؛ وهم يمتازون على غيرهم بأنهم قد طرحوا وجهات نظرهم باستخدام نتائج علم الطبيعة الحديث والرياضيات . وما قاله مورتون وهايت عن « وهايت هيد » ينطبق على كل هؤلاء :

« إنه مفكر بطل يتحدى أسود الفلسفات العقلانية والمادية والموضوعية في عرينهم المخيف[1] » .

[التشديد مضاف]

* * *

إن الرياضي والفيلسوف الإنجليزي « ألفرد نورث وهايت هيد » (١٨٨١ — ١٩٤٧) قد انتهى إلى أن :

« **الطبيعة حيّة** »[2] ، أي أنها ليست بدون روح .

وقد استنتج الفلكي الإنجليزي السير آرثر إيدينجتين (١٨٨٢ — ١٩٤٤) من دراسة العلوم :

---

(١) The Age Of Analysis, p 84.

(٢) « Nature Is Alive, » Ibid, p 84.

« أن مادة العالم مادةٌ عقلية » [١] .

والرياضي السير جيمس جينْزْ الذي يُعتبر أعظم علماء العصر، قد عبّر عن الكشوف الجديدة بقوله: « The Universe Is a Universe Of Thought. »

« إن الكونَ كونٌ فكري »[٢] .

إن الذين أدلوا بهذه الآراء هم علماء على درجة كبيرة من الأهمية في دنيا العلم . ويلخص ج. و. ن. سوليفان أفكارهم في الجملة التالية :

« إن الطبيعة النهائية للكون طبيعة عقلية » [٣] .

« The Ultimate Nature Of The Universe Is Mental. »

* * *

ما الحقيقة النهائية للكون العقل أم المادة ؟ إن هـذا السؤال يتحوّل في صيغته الفلسفية إلى السؤال الآتي : « هل الكون نتاجٌ لعمل المادة المحض ، أم أن الكون مخلوق لقوّة غير مادية خلقتْه بالإرادة»؟ فلو قيل عن ماكينة ما: إنها تركيب صدفي للحديد والبترول في حقيقتها النهائية ؛ فذلك يعني أن الحديد والبترول كانا هما الموجودين الوحيدين قبل الماكينة وأنها قـد تطورا فأخذا صورة الماكينة نتيجـة عمل مادي أعمى ... وعلى العكس من هذا لو قلنا : إن الماكينة في حقيقتها النهائية هي عقل المهندس ، فسيكون معنـاه

---

(١) « The Stuff Of The World Is Mind - Stuff, »
Ibid, p. 146.

(٢) Ibid, p. 134.

(٣) Ibid, p. 145.

أن العقل وُجد قبل الماكينة وأن ذلك العقل هو الذي فكّر في نظام الماكينة بعيداً عن المادة ، وأنه أنتج الماكينة بعدئذٍ بالإرادة .

إن الذين يعتقدون أن « العقل » هو الحقيقة النهائية للكون ينقسمون إلى عدّة مدارس بسبب عدم تمكنهم من تعيين ماهية « العقل » بكل تحديد .. وهم في هذا لا يختلفون عن المؤمنين بالله الذين يختلفون في تصورهم لله بسبب انتمائهم لأديان مختلفة . **ولكن النتيجة التي انتهت إليها الدراسة العلمية – وهي أن الحقيقة النهائية للكون « عقل » – هذه النتيجة من حيث نوعيتها تصديقٌ للدين ودحض للالحاد بكل تأكيد .**

إن هذه النتيجة التي أشرنا إليها تمثّل تغيّراً عظيماً طرأ على العلم في القرن العشرين . وأهم جانب لهذا التغيُّر هو أنه لا يعني أننا قد حصلنا على المزيد من الطاقة لترقية المدنية ، ولكن كما يقول البروفيسور ج.و.ن.سوليفان: **« لقد طرأ هذا التغيُّر على الأسس المتعلقة بما بعد الطبيعة للمدنية [١] » .**

إن كتاب « عالم الأسرار » الذي ألّفه الفلكي والرياضي البريطاني السير جيمس جينز يحتوي على أكثر المواد العلمية قيمةً من هذه الناحية . وقد انتهى السير جينز بعد مناقشة علمية بحتة إلى أن :

« الكون لا يقبل التفسير المادي في ضوء علم الطبيعة الجديد . وسببه – في نظري – أن التفسير المادي قد أصبح الآن فكرةً ذهنية « Mental Concept » [٢] .

[التشديد مضاف]

---

(١) The Limitations Of Science, pp. 138 - 50.
[التشديد مضاف]

(٢) Sir Games Geans, Mysterious Universe (1948) p. 123.

وهو يقول أيضاً :

« If The Universe Is A Universe Of Thought Then Its Creation Must Have Been An Act Of Thought. »

« إذ كان الكون كوناً فكرياً ، فلا بد أن خلقه كان عملاً فكرياً أيضاً[1] » .

إن السير جيمس يرى أن تفسير المادة بأمواج البرق نظرية غير مفهومة للعقل الإنساني .. فإن من الممكن ألاّ تكون هذه الأمواج شيئاً أكثر من « أمواج الاحتمالات » Waves Of Probabilities التي لا يكون لها وجود حقيقي .

ولهذه الأسباب وغيرها توصّل السير جيمس جينز إلى أن حقيقة الكون ليست المادة وإنما هي العقل . فأين يقع هذا العقل ؟ إن الإجابة على هذا السؤال هي أن العقل يوجد في رأس« رياضي كوني عظيم » وهذا لأن هيكل الكون هو بكامله هيكل رياضي :

« من الصحيح أن نقول : إن نهر العلم قد تحول إلى مجرى جديد في الأعوام الأخيرة ... لقد كنا نظن قبل ثلاثين سنة — ونحن ننظر إلى الكون — أننا أمام حقيقة من النوع الميكانيكي . وكان يبدو لنا أن الكون يشتمل على ركام من المادة المبعثرة وقد اجتمعت أجزاؤه بالصدفة ؛ وأن عمل هذه المادة ينحصر في أن ترقص لبعض الوقت رقصاً لا معنى له تحت تأثير قوى عمياء لا هدف لها ؛ وأنه بعد نهاية

---

(١) Ibid, pp. 133 - 34.

[التشديد مضاف]

هذا الرقص ستنتهي هذه المادة في صورة كون ميت ؛ وأن الحيـاة قد وُجدت صدفةً خلال عمل هذه القوى العمياء ؛ وأن بقعة صغيرة جداً من الكون قد نعمت بهذه الحياة أو على سبيل الاحتمال يمكن أن توجد هذه الحياة في بقاع أخرى؛ وأن كل هذا سينتهي يوماً وسيبقى الكون فاقد الروح. **ولكن توجد اليوم أدلة قوية تضطر علم الطبيعة إلى قبول الحقيقة القائلة بأن نهر العـــلم ينساب نحو حقيقة غير ميكانيكية . إن الكون أشبه بفكر عظيم منه بماكينة عظيمة . إن « النهن » لم يدخل إلى هذا العالم المادي كأجنبي عنه . ونحن نصل الآن إلى مكان يجدر بنا فيه استقبال « النهن » كخالق هذا الكون وحاكمه. إن هذا النهن بلا شك ليس كأذهاننا البشرية، بل هو ذهنٌ خلق الذهن الانساني من « الذرّة المادة » . وهذا كله كان موجوداً في ذلك النهن الكوني فيصورة برنامج مُعدٍّ مسبقاً. إن العلم الحديد يفرض علينا أن نعيد النظر في أفكارنا عن العالم ، تلك التي كنا قد أقمناها على عجل. لقد اكتشفنا أن الكون يشهد بوجود قوةٍ منظّمة أو مهيمنة** Designing Or Controlling Power، **وهذه القوّة تشبه أذهاننا إلى حد كبير . وهذا الشبه ليس من ناحيـــة العواطف والأحاسيس ، وإنما هو شبهٌ يتعلق بذلك النهج الفكري الذي يمكننا تسميته بالنهن الرياضي**[1] » .

* * *

---

(١) Ibid, pp. 136 - 138.

[التشديد مضاف]

وبالرغم من هذه التغيرات في دنيا العلم لم يطرأ تغيّر يذكر على العقلية المنكرة للدين . بل على العكس من ذلك ينهمك معارضو الدين في تدبيج قضيتهم ضد الدين بأساليب جديدة. وليس سبب هذا الموقف اكتشافاً علمياً خطيراً وإنما هو التعصب ، ولا غير . إن التاريخ ليحفل بما لا يحصى من الوقائع التي تبرهن على أن البشر رفضوا الحقيقة ـ رغم تجليها بكل وضوح ـ لأن تعصبهم لفكرة ما لم يسمح لهم بقبولها . وهذا التعصب الأعمى هو الذي جعل العلماء الإيطاليين قبل أربعة قرون يرفضون نظرية (جاليليو) كبديل لنظرية أرسطو القديمة ؛ على الرغم من أن الكرتين اللتين أسقطهما جاليليو من قمة منارة « لينِنْج » قد جعلتا نظريته حقيقةً مرئية للعيان . وهذا هو التعصب الذي جعل العلماء في نهاية القرن الماضي يسخرون من نظرية البروفيسور ماكس بلانك Max Plank المفسّرة لظواهر الضوء ، والتي أبطلت نظرية نيوتن . وتلك هي النظرية التي تسمى اليوم بنظرية الكمية « الكُوانتم » ، وتعتبر من أهم أسس علم الطبيعة الحديث .

وإذا كان أحدنا يظن أن داء التعصب يمكن أن يصيب الآخرين دون العلماء ، فإنني سأذكّره بما قاله أحد العلماء المعاصرين وهو الدكتور أ. و. هيلز A. V. Hills :

« I Should be The Last To Claim That We, Scientific Men, Are Less Liable To Pregudice Than Other Educated Men. »

«إنني سأكون آخر مَن يدّعي أننا نحن العلماء أقلّ الناس عرضةً للتعصب بالنسبة للمثقفين الآخرين[1] » .

---

(١) Quoted By A. N. Gilkes, Faith For Modern Man p. 109.

فنحن أمام دنيا يمزّقها التعصب . فكيف لنا أن نتوقع أن نظرية ً ما سوف تحظى بقبول الجميع لمجرد أن المنطق أو العلم قد أثبتها ؟! إن تجربة التاريخ الطويل تدلنا على أن العواطف لا العقل هي التي كانت تقود الانسان.وبالرغم من أن العقل هو الذييحظى بالمقام الأرفع علمياً ومنطقياً، لكن العواطف في أغلب الأحايين هي التي كانت تستعبد العقل . وكان العقل دوماً يخترع المعاذير للعواطف ، ودائماً حاول أن يُظهر تصرفات العاطفة بمظهر العقل . وقد تكون الواقعة غير منسجمة مع فكر الانسان ، إلا أنه يصرّ على أن يبقى سجين عاطفته . إن علينا ألاّ ننسى أن الذي نخاطبه ليس ماكينة ً حديدية تعمل على منوال واحد بمجرد الضغط على الزرّ ، وإنما الذي نخاطبه هو الانسان . والانسان لا يعترف بشيء ما إلا إذا كان يرغب في ذلك الاعتراف . وأما إذا لم يكن يرغب في الاعتراف بحقيقة ما فان أي دليل لمجرد أنه دليل لن يكفي لحمله على ذلك الاعتراف . إن الدليل العلمي أو العقلي لن يصبح بديلاً للزر الكهربائي . . وهذه أكبر مأساة في تاريخ الانسان .

الفصل السادس

الإنسان ذلك المجهول
مناقشة أفكار الدكتور كاريل

« لقد تمكنا بعد معرفة خصائص المادة وتركيبها من السيطرة على كل شيء فوق سطح الأرض ما عدا الذات البشرية ؛ فإن علم الظواهر الحياتية عموماً وعلم الإنسان ـ على وجه الخصوص ـ لم يحرزا التقدم المماثل ، ولا يزال هذان العلمان علمين وصفيين ، بالرغم من أن أصل الظواهر الحياتية يتركز في كونها غير وصفية » .

« إن كل دراستنا الطبيعية هي دراسة « جثة » الإنسان الميت ، فلسنا نتمتع بعد بصلاحية دراسة الإنسان الحيّ » .

اقد وصل العلماء بعد تجارب طويلة إلى قدر كبير من النجـاح في دراسة المواد الجامدة، بينما أخفقوا أيما إخفاق في اكتشاف الحقائق المتعلقة بالإنسان. إن الذي يفرق بين علوم المواد الجامدة وبين العلوم الحياتيـة هو أن المادة الجامدة خاضعة لقوانين معينة ، أما الظواهر الحياتية فهي « غابـة طلسمية توجد فيها آلاف مؤلفـة من الأشجار الملوّنة التي تغيّر مواقعها وأشكالها بصورة مستمرة » . والظواهر الحياتية – على العكس من الظـواهر المادية الجامدة – لا يمكن التعبير عنها في معادلات الجبر والتقابل ، وهذا على الرغم من أن علم « الأرض المادية » لم يتخطّ بعدُ مرحلة العلم الوصفي Descript-ive Science ، وهي في الحقيقة مرحلة هزيلة جداً في سلم العلم . وينتسب « علم الأرض المادية » السالف الذكر إلى هذه المرحلة ؛ لأنه لا يكشف لنا عن أصول الأشياء ، وإنما يبيّن بعض الأوصاف الظاهرية ، كالوزن والأبعاد المكانية Spatial Dimensions ، ولكن على الرغم من هـذه المكانة التي يحتلها هذا العلم فقد تمكنا بواسطته من التنبؤ بأحداث تقع في المستقبل لدرجة أننا – في بعض الأحايين – نستطيع أن نعيّن تاريخ الوقائع القادمـة بكل ضبط .

ولقد تمكنا بعد معرفـة خصائص المادة وتركيبها من السيطرة على كل شيء فوق سطح الأرض ما عدا الذات البشرية ؛ فان علم الظواهر الحياتية

عموماً وعلم الانسان – على وجه الخصوص – لم يحرزا التقدم المماثل ، ولا يزال هذان العلمان – كما قلنا – عِلمَيْن وصفيين بالرغم من أن أصل الظواهر الحياتية يتركز في كونها غير وصفية .

ولتوضيح هذه الفكرة سوف أنقل هنا اقتباساً طويـــلاً من الدكتور « ألكسيس كاريل * » .

« الإنسان آلة معقّدة جداً وغير قابلة للتقسيم ، ومـــا من شيء يمكنه التعبير عن الإنسان ببساطة . وليست هناك من طريقة قط لفهم الذات الكاملة للإنسان ولإدراك علاقـــة أجزاء جسمه بالعالم الخارجي . ونحن قد درجنا على أن نستخدم مختلف « التكنيكات » الفنية لتحليل Analysis الذات البشرية ولقد لجأنا في هـذا إلى علوم مختلفة . وطبيعي أن هذه العلوم لا تستطيع تكوين صورة موحـدة لأهدافها. وهي لا تجرّد الإنسان إلا من الأشياء التي تستطيع التوصل إلى دراستها بطرقها الخاصة . ولو أننا جمعنا كل تلـك المجردات التي نحصل عليها عند تحليل الذات الإنسانية عن طريق هذه العلوم ... لوجدنا أن هذه المجردات أقـلّ قيمة من الحقيقة المجردة مع أن هناك ذاتاً تبقى وراء هـــذه المجردات – وهي أهم منها ولا يمكن تجاهلها البتة !!

---

* الدكتور كاريل Alexis Carrel (١٨٧٣ – ١٩٤٤) جراح وعـــالم بيولوجي فرنسي . حصل على جائزة نوبل للعلم سنة ١٩١٢ تقديراً لإسهامـــه في مجال جراحة Blood Vessels . نشر كتابه « الإنسان ذلك المجهول » Man The Unknown الذي يناقشه المؤلف هنا سنة ١٩٣٥ وهو كتاب مترجم إلى العربية في غير طبعة – المراجع .

« إن علم التشريح والكيمياء وعلم الفسيولوجي والنفس ودروس التاريخ وعلم الاجتماع والاقتصاد السياسي لا تعطينا نتائج قطعية عن ميادينها . **وإن الانسان الذي يعرفه علماؤنا ليس إلا إنساناً بعيداً جداً عن الانسان الحقيقي .**

« إن الإنسان الذي يعرفه هؤلاء العلماء لا يعدو أن يكون فرضاً قائماً على فروض أخرى ، وقد اختلق التطور الفني للعلوم هذه الفروض .

« إن الإنسان في وقت واحد (جثة) يعبث فيها عالم التشريح بمبضعه ، و (شعور) يطالعه عالم النفس والجهابذة الروحانيون ، و (شخصية) يتضح من مطالعتها أن الإنسان غارق في أغوار ذاته الغامضة ، و (مادة كيماوية) تتكون منها الأنسجة الجسمية والخلايا.. إنه مجموعة عجيبة من الخلايا و (الرطوبات) الغذائية التي يدرس قوانينها الجسمية علماء الفسيولوجي ،إنه مركب من الأنسجة والشعور الذي يحاول علماء الصحة والتعليم تنميته عندما يكون خاضعاً لدائرة الزمان ... إن الإنسان هو « عالِمُ الاقتصاد البيتي » الذي ليس له من همٍّ إلا استخدام الأشياء التي اخترعها حتى يستمر عمل تلك الآلات التي أصبح عبداً لها ، ومع كل هذا فهو « شاعر » و «بطل» و « وليّ » من الأولياء الروحانيين .

«والإنسان ليس مجموعة معقدة من الأشياء والأوصاف التي تجْبِر العلماءَ على بذل مهارتهم الفنية في تحليلها فحسب بل هو موضع آمال الإنسانية ومجال أفكارها . ولا شك في أن الإنسانية بذلت

جهوداً جبارة لاكتشاف حقيقتها الذاتية . ونحن نملك الآن أكواماً غير عادية من نتائج جهود الفلاسفة والشعراء والصوفية الكبار، ولكننا لم نكتشف بعد إلا بعض جوانب شخصيتنا .

« إننا لم نفهم الإنسان في حقيقته الكلية حتى الآن ، ومعرفتنا – في حقيقتها – لا تتعدى التعرف على مختلف الأجزاء التي يتركب منها جسمه ؛ وهذه الأجزاء نفسها – من تقسيمنا وتفريعنا نحن وفق الطرق التي اخترعناها . إن كل إنسان منّا صورةٌ خياليةٌ تشفّ منها حقيقتُه المجهولة . والحقيقة أن جهلنا بأنفسنا عميق جداً . إن الذين يدرسون الذات الإنسانية يوجهون إلى أنفسهم أسئلة كثيرة جداً لا إجابة عليها . إن مناطق واسعة من عالمنا الداخلي مجهولة :

« كيف تتحد الجزئيات في المواد الكيماوية لإيجاد جسم الخلايا المعقد القصير العمر ؟

« كيف تُقرِّر المادةُ التناسلية في نواة البيضة الطرية الطازجة خصائصَ فردها الذي سيخرج من تلك البيضة ؟

« كيف تتجمع الخلايا ذاتياً في مجموعات الأنسجة والأعضاء ؟ إن هذه الخلايا تعرف مسبّقاً – شأنها شأن النمل أو النحل – ما العمل الذي يجب أن تؤدّيه لإبقاء مجموعتها على قيد الحياة ... وهذه الخلايا تتمكن من خلق نظام جسماني بسيط ومعقد !!

« ما نوعية المدة Duration والوقت الفسيولوجي والوقت النفسي ؟

« ونحن نعرف أننا نتكوّن من الأنسجة والأعضاء والرطوبة والشعور ، ولكن العلاقة بين الشعور والدماغ لا تزال لغزاً محيِّراً. ونحن لا نعرف كل المعرفة أفعال خلايا الأعصاب ، وإلى أيّ حد تؤثر القوّة الإرادية في إحداث التغيرات في نظام الجسم الإنساني ؟ كيف يتأثر الدماغ من حالات الأعضاء ؟ كيف يمكن إحداث التغيرات في الخصائص التي يرثها الجسم والعقل الإنساني عن طريق أُسلوب الحياة والمواد الكيماوية للأغذية والمناخ والموسم والتربية الأخلاقية والعلمية ؟!

« إن حدود جهلنا تتسع لدرجة أننا لا نستطيع معرفة العلاقات بين الهيكل والعضلات والأعضاء والأنشطة العقلية والروحانية. ونحن نجهل أيضاً الأسباب التي ينتج عنها توازن الأعصاب وقوّة المقاومة ضد عوامل الإرهاق والمرض !! ونحن – كذلك – لا نعرف كيف يمكن تنمية الشعور الأخلاقي وقوّة الإرادة والجرأة ، ولا نعرف كنه الأهمية الإضافية للنشاط الذهني والأخلاقي والصوفي !! وما الحاجة الملحة إلى الشعور الجمالي والديني !! وما القوة التي تخلق العلاقة الإشراقية !!. ولا شك في أن بعض الأسباب الفعلية والعقلية تقرر السعادة أو التعاسة أو النجاح أو الفشل ، ولكننا لا نعرف ماهية تلك الأسباب ؛ فنحن لا نستطيع أن نخلق في إنسانٍ ما ملكة « السعادة » بطرق مصطنعة.. ولم نعرف حتى الآن ما البيئة المناسبة لتقدم الإنسان المتمدن ! هل يمكن لبنائنا الفسيولوجي والروحي القضاء على الصراع والإرهاق والألم ؟! كيف يمكننا منع الإنسان من السقوط في قاع الحضارة المعاصرة ؟!

« إن من الممكن جداً طرح أسئلة كثيرة عن هـذه الأشياء التي تثير الكثير من الدهشة والتعجب ، ولكن الحقيقة الواضحة أنـه لا توجد ردود مقنعة على كل هذه التساؤلات. ..

« لقد أصبح جلياً أن تقدم كل العلوم المتعلقة بالانسان لا يكفي لاشباع احتياجاتنـا عنه ، وبايجاز شديد : أن علمنا عن ذاتنـا لا يزال في حال بدائية [١] » .

ويكفينا هذا الاقتباس لإثبات أن الإنسان لم يظفر بعدُ بـ «علم الإنسان» وحقيقةً أننا نعرف الكثير عن الجزء المادي من جسم الإنسان، ولكن الحقيقة الأقوى أننا نجهل « الإنسان » الذي يدير هذا الوجود المادي ؛ وهـذا هو السبب في أن الحياة لا تزال لغزاً بالنسبة للإنسان ، ومن المؤكد أنه لا يمكن تعمير الحياة وبناؤها على الوجه الصحيح دون اكتشاف هذا اللغز .

إن كتاب « ألكسيس كاريل » محاولةٌ علمية لاكتشاف هذا الإنسان . وهناك جهود أُخرى كثيرة من هذا النوع ، ولكن النتيجة لا تزال صفراً .

إن الإنسان المعاصر يستطيع تحطيم الذرة ، ويستطيع إقامة المستعمرات فوق مناطق يكسوها الجليد طول العام ، وهو كذلك يستطيع التجول في طبقات الفضاء .

وإن آلاف الوقائع التي من هذا النوع كفيلة بأن تثبت لنـا أن الإنسان يستطيـع اكتشاف ذاتـه أيضاً ، ويستطيع في الوقت نفسه إصلاح أحواله

---

(١) Man The Unknown, pp. 16 - 19.

[التشديد مضاف]

الذاتية الداخلية تماماً كما تمكن من ذلك في العالم المادي. **ولكن الكون المعروف لنا يشير –من ناحية أخرى– إلى أننا لا نستطيع التوصل إلى أسرار الانسان بنفس الأسلوب الذي نستخدمه في اكتشاف خواص المادة .**

إن الكيان الذي نسميه «الإنسان» مركب من بلايين الخلايا من البروتوبلازم.. وما البروتوبلازم ؟ إنه مركب من مواد لا روح فيها ، وهو يتمتع بقـــدرة فائقة على التحول إلى الحياة ... إن البروتوبلازم بكلمة موجزة : « وحـدة حياتية » ... ولكننا لا نستطيع دراسة هذه الوحدة الحياتية بالأسلوب الذي ندرس به العالم المادي .

إن كل شيء يمكننا مشاهدته ليس إلا مركباً يتكون من عدة مواد ، وإذا استطعنا الوصول إلى الوسائل والطرق المناسبة لتفهم ماهية تلـــك المواد لتمكنا من إيجـــاد تلك المركبات ومن إعدامها ؛ ولهذا فقد زعم الفيلسوف الألماني « كانت » سنة ١٧٥٥ م. أنـــه « إذا أعطيتموني المادة فسوف أريكم كيف تُخلق الأرض منها » وزعم « هيجل » Haeckel زعماً آخر جريئـــاً حين قال : « إيتوني بالماء والأجزاء الكيماوية والوقت وسوف أخلق الإنسان » ! !

فعلى سبيل المثال نعرف أن جُزَيْء الماء يتكوَّن من ذرّة واحـــدة من الأوكسيجين وذرتين من الهيدروجين ، ولذلـك فنحن نستطيع بكل بساطة أن نخلط هذه الغازات بهذه المقادير ونعطيها صورة الماء أو نحطم جزئيـات الماء ونحولها إلى الهيدروجين والأوكسيجين .

ولكن قضية الإنسان تختلف تماماً عن هذا . لقد اكتشفناء الأجزاء التي توجد في البروتوبلازم كما عرفنا مقاديرها بكل ضبـــط ، ولكن الإنسان

لا يستطيع خلق الحياة بتركيب هذه العناصر بنسبها المعروفة. **إننا نركّب أجزاء البروتوبلازم بكل نسبها الصحيحة وبكل ضبط، ولكننا لا نستطيع خلق ذلــك البروتوبلازم الذي يتمتع بالحياة ، والذي يوجد في أجسامنا الحيّة ؛** وهذا على الرغم من أننــا نستطيع خلق مركبات كيماوية أُخرى بتركيب أجزائها بنسبها الصحيحة . لقد اتضح من هذا أننا لا نستطيــع التصرف في الإنسان كما نتصرف في الأشياء المادية الأخرى .

هذا هو عجزنا الأول فيما يتعلق بدراسة الإنسان .. **أما عجزنا الثاني الأكبر والأهم ، فهو أن كل دراستنا الطبيعيــة هي دراسة « جثة » الانسان الميت ، فلسنا نتمتع بعدُ بصلاحية دراسة الانسان الحيّ .** لقد اكتشف العلم كلّ الأجزاء التي يتكوّن منها البروتوبلازم ، وقد اكتشف أيضاً مقادير كل هذه الأجزاء بنسبها الدقيقة ، ولكنه أخفق في اكتشاف الترتيب الخاص في هذه الأجزاء ذلك الترتيب الذي يُبْقي البروتوبلازم على قيد الحياة . ولا يكاد يختلّ هذا الترتيب حتى يموت البروتوبلازم ؛ فالمسؤول عن وجود الروح في البروتوبلازم هو ذلك الترتيب الخاص .. ولكن علمنا لا يستطيــع تحليل البروتوبلازم في ترتيبه الخاص الذي توجد فيه الحياة ؛ ولذلــك يجب تحطيم ذلك الترتيب حتى نقوم بتحليل البروتوبلازم وبتجربته في المعمل ، ولا نكاد نحطم الترتيب الخاص للبروتوبلازم حتى تغادره الحياة. **فالنتيجة أن البروتوبلازم لا يخضع للدراسة والتحليل إلا بعد خروج الروح منه . ولم يحدث البتة أن البروتوبلازم كان حيّاً وقت إجراء التحليل عليه .** والواضح أن العــلم سيظل جاهلاً بحقيقة الحياة ما لم يُجرِّب البروتوبــلازم الذي لا يزال حيّــاً وذا روح ، ولكن مشكلاتنا لا تقف هنا ، بل تتطور أكثر فأكثر ..

لنتخيّل أن رجلاً مــا يعقد العزم على اكتشاف حقيقة الإنسانيــة ليعلّم

الإنسان قانون الحياة.. فللوصول إلى هذا الهدف يبدأ ذلك الرجل في دراسة المجتمعات البشرية ، وبعد دراسة طويلة يكتشف أن المجتمع البشري لا شيء سوى أنه مجموعة من البشر ، وأن الطريقة المثلى لفهمه ودراسته هي دراسة فرد من المجموعة البشرية للوقوف على حقيقة المجتمع البشري كله من خلال ذلك الفرد ، ومن ثم يترك الرجلُ « المجتمعَ » ويشرع في دراسة «الإنسان» ويتجه أول ما يتجه إلى علم النفس ظناً منه أنه سيكشف عن طريقه حقيقة الإنسان .. ولكنه يشعر بعد قليل أن علم النفس ليس فكراً واحداً ، وإنما هو علم ذو فروع كثيرة جداً ... والنتائج العلمية لكل هذه الفروع متباينة فيما بينها تبايناً كبيراً وجذرياً ؛ فبينما يدعي فرع من فروع علم النفس أن مركز جميع الأعمال في الإنسان هو « الإحساس » ؛ يدعي فرع آخر أن كل عمل إنساني هو في حقيقته ردُّ فعل لتأثيرات العالم الخارجي ؛ ويزعم بعضهم أن الغريزة الجنسية هي التي تحرّك جميع الأعمال ؛ على أن بعضاً آخر قادتهم الدراسة إلى أن الرغبة المجهولة في الوصول إلى المثالية هي التي تحرك الانسان ؛ وثمة مدرسة فكرية تقرر أن الشعور هو الأصل ، وأنه على أساس الشعور يجب تفسير الوجود الإنساني كله ؛ وقال آخرون: إنه لا شيء يمكن تسميته بالذهن أو العقل ، وأن قوّة مركزية واحدة ليست هي التي تدير كل الأعضاء ، بل إن العضو الذي يوليه الإنسان الاهتمام الأكبر هو الذي ينمو ويتطور ، ومن هنا يصبح بعضهم راقصاً بارعاً، والآخر مفكراً.. إلى غير ذلك .

ولقد بلغ الصراع بين مختلف مدارس علم النفس أقصاه لدرجة أن بعض العلماء قد ذهب إلى إنكار وجود شيء اسمه « علم » فيما يتعلق بالنفس .

ونعود إلى ذلك الرجل الذي عقد العزم على اكتشاف حقيقة الإنسان ،

فهذا الرجل سيرى الآن بعد مشاهدة هذه الغابة الفكرية أنـــه يجب دراسة الإنسان في ضوء علم آخر وليكن « علم الطبيعة » لكي يقارن نتائج هـذا العلم بنتائج علم النفس ... وسيبدو له أن الإنسان في ضوء علم الطبيعـــة مجموعة من أنظمة الهضم والتنفس ودوران الدم وغيرها . وهذه الأنظمة تقوم على أساس تغيرات كياوية تطرأ بسبب الفعل وردّ الفعل في العناصر الكياوية، وسيبدو الجسم الإنساني لهذا الرجل في ضوء هذه الدراسة مَعْرضاً للتحليل الكيميائي .

وعندما يفكر الرجل في هذه النتيجة فإنه سيصل إلى أنـــه ما دامت نشأة الجسم الإنساني رهناً للتحليل الكياوي وتفاعلاته ؛ فإن عليـه — أي على ذلك الرجل — دراسة قوانين التغيرات الكياوية ؛ لأنه لا يمكن الحصول على معلومات قطعية وحقيقية عن الإنسان بدون هذه الدراسة .. ولذلـــك يبدأ في دراسة الكيمياء والطبيعة ويصرف حقبـــة من عمره في مجال هذين العلمين ، وتقوده هذه الدراسة للطبيعة والكيمياء إلى دراسة الجزيء والذرة ثم يبدأ في دراسة العناصر التركيبية للذرّة : الأليكترون والـــبروتون . ثم يكتشف بعد هـذه الدراسة أن الكون لا شيء سوى أنه مجموعـة « أمواج برقية » ؛ والرجل المذكور يصل عن طريق هذه الدراسات إلى آخر فروع العلم الحديث : « علم الفضاء » ؛ ولكنه بالرغم من وفرة المعلومـات التي سيحصل عليها في هذا المجال سيشعر أنه يجهل حقيقة الإنسان أكـثر من أي وقت مضى ؛ وسيجد ذلك الرجل الذي كان قد عقد العزم على كشف حقيقة الإنسان ووضع قوانين له .. سيجد نفسه قـد ضل في عـالم خيالي غامض لا يرى فيه شيئاً على الرغم من أنه يرى كل شيء... وعلى حدّ تعبير الدكتور جود Dr. Cood :

« إن المادة الحديثة لغز لا يمكن وضع اليد عليه ؛ إنها مركب من البعد والزمن ، أو شبكة من الموجات البرقية ، إنها موجة الإمكان التي تتوه في بحر الفناء في لمحة البصر بيد أنها في حقيقتها لا تعدو أن تكون — في أكثر الأحايين — مجرد اتساع شعور الناظر ، وليست — أبداً — مادة حقيقية » .

* * *

هذه الجهود الضائعة لعملية البحث عن لغز الحياة من خلال العلوم المادية تؤكد حقيقة هامة، هي أن الإنسان لن يتمكن بنفسه من اكتشاف لغز الحياة.

وما العمل إذن ؟

إن المريض الجاهل بالطب لا يقعد في بيته مستسلماً للمرض بحجة هذا الجهل إنه يذهب إلى الطبيب بحثاً عن الدواء . فكون الانسان محتاجاً لشيء ما ثم إخفاقه في الحصول على هذا الشيء كاف في حد ذاته لأن يُقنع الانسان بأنه يحتاج إلى الاله .. الاله الذي جعله محتاجاً للأوكسيجين ، ثم خلق الأوكسيجين **في مقادير هائلة ونشره حول الكرة الأرضية .. وبنفس الطريقة جعل الله الانسان محتاجاً لحقيقة الحياة ، ثم أرسل أنبياءه ورسله لينبهوا الانسان إلى حقيقة وجوده على الأرض ، وإلى غايته الحقيقية الكبرى في هذه الحياة .**

الفصل السابع

دين العصر الحديث

مناقشة أخرى لكاريل وآخرين

« إن محاولة تقديم تفسير لعلم الإنسان بحيث ينطبق على كل إنسان ضربٌ من المستحيل وجريٌ وراء السراب . والحقيقة أنه لا حل لمشكلات الانسان إلا بالسيطرة على إرادة الانسان حتى يفعل الانسان بمحض إرادته ما نريده منه » .

* * *

« يجب أن نستعد لمواجهة الحقيقة ، وهي أن جهلنا بالحقائق النهائية سوف يستمر إلى الابد بسبب فطرتنا المحدودة » .

جوليان هسكلي

يرى « جوليان هكسلي » أن التشكيك الكلي Complete Scepticism غير ممكن ، وأنه يجب أن يؤمن الإنسان بقدر من « العقيدة » لأن « ديناً من نوع ما يكاد يكون ضرورياً » [١] .

« Religion of some sort is probably necessary »

ولكن دين العصر الحديث يجب أن يكون في رأيه ديناً بدون إله وبدون وحي. وللوهلة الأولى يبدو هذا الكلام عبثاً ، ولكنه يحمل على ظهره فلسفة أثرت في عقول كثيرة .

إن الذين يفكرون على هذا النحو ليسوا جميعاً على اتفاق فيما بينهم حول الجزئيات ، مع ملاحظة أنهم يشملون كلا النوعين : معارضي الدين والمدافعين عنه – أي عن ضرورة وجود أية عقيدة – ولكن القاسم المشترك بينهم أنهم لا يعترفون بالبحث عن الهداية عن طريق الوحي السماوي ، بل يذهبون إلى أن الهداية – مثل العلوم الإنسانية الأخرى – يمكن البحث عنها والوصول إليها بالجهود الإنسانية أو على حد قول اللورد مارلي :

« The next great task of science is to Create a religion for mankind. »

« إن الواجب الآخر العظيم للعلم هو أن يخلق ديناً للبشرية » [٢].

---

(١) Hindustan Times, Oct 1961.

(٢) C. A. Coulson, Science & Christian Belief, 1955, P 8.

وإذا ما أشار واحد من هذه المجموعة إلى (الدين) فإنه لا يقصد المفهوم الديني الشائع ، بل إن له مفهومه الخاص إنــــه يعتقد أن الدين ليس حقيقة تُعرف بالوحي والإلهام ، وإنمــا هو مجرد « فن عقلي » Intellectual Art . وأم أهداف هذا الدين على حسب تعبير أحد مفكريه : « نقل المقعد من الله إلى الإنسان » Transfer of seat from God to man ؛ ولذلك فهم يسمون هذا الدين الجديد بـ « الإنسانية » أو « المذهب الإنساني » Humanism .

إن كتاب الدكتور ألكسيس كاريل ، المطبوع لأول مرة سنة ١٩٣٥ ، يعتبر جهداً علمياً لإنشاء هذا الدين الحديث ، بيد أنه لا يمكن اعتبار هــذا الكتاب ممثلاً لكل المجموعة المؤمنة بهــذا المذهب ، ولكنه بالرغم من ذلك جهد علمي لم يفقد قيمته بعدُ .

«إن الانسان سجين المشكلات بالرغم من كل التقدم العلمي والتكنولوجي»

إنها قضية تؤرق مفكري عصرنا ، ويرى بعض الناس أن هــذا التناقض نشأ بسبب انحطاط مكانـــة الدين . ولكن الذين لا يؤمنون بالدين يفكرون في الموضوع على نهج مختلف فهم يرون أننا لم نحرز تقدماً في العلوم الحياتية بنفس القدر الذي أحرزناه في علوم المادة الجامدة ، وهذا التناقض ليس إلا نتيجة إهمال علوم الحياة ؛ وهم ينادون بمضاعفة البحث والدراسة في العلوم الحياتية.

لقد أراد الدكتور «ألكسيس كاريل» سدّ هذا الفراغ : « إن العلم الذي غيّر صورة الدنيا المادية ها هو يعطي الطاقة للإنسان كي يغيّر نفسه أيضاً » بهـــذه الكلمات يبدأ الدكتور كاريل فصل « البناء الجديد للإنسان » The Remaking of Man . « لقــد أصبحت الإنسانية لأول مرة في التاريخ سيّدة قدرها بفضل العلم ، إننا نستطيع الآن أن نطوّع الجسم والروح

لإرادتنا تماماً كما نفعل في عـــالم المادة . نحن نعرف أن الغباء واللاأخلاقية والجريمة ليست وراثية بصفة عامة ؛ ونحن نستطيع معالجة هذه العيوب ، كما نعالج الأمراض » .

ويستطرد الدكتور كاريل :

« إن المهن والحرف قـــد صاغت الإنسان وفق الأفكار الخاطئة التي شاعت عما بعد الطبيعة ، وليس وفق الروح العلمية .

« يجب علينا أن نحطم الحدود التي أقيمت بـين مختلف جوانب ذاتنا وبين خصائص الأشياء الحقيقية . إن هذا الخطأ المسئول عن كل مشكلاتنا مبني على التفسير الخاطىء لنظرية التوليد Genital Idea التي قدمها جاليليو. لقد فصل جاليليو الصفات الأولية (ذات الأبعاد والوزن ، والتي يمكن وزنها بسهولة) عن الصفات الثانوية التي تتعلق بالشكل واللون والرائحة والتي لا يمكن وزنها . وهكذا انفصلت الكمية عن الكيفية . وقد تولدت عن هذه الغلطة نتائج غير عادية ؛ ذلـك أن الأشياء التي لا يمكن وزنها في الإنسان أكثر أهمية من تلك التي يمكن وزنها ، فمثلاً وجود الفكر والخيال لا يقلّان أهميةً عـــن وجود التوازن الكيماوي في مصل الدم Blood Seram . وقد اتسعت الهوة بين الأشياء الكمية والكيفية حين بـدأ « ديكارت » يفرق بين الجسم والروح . ومن ثم أصبحت مظاهر الدماغ غـير قابلة للتفسير لأنهم فصلوا الأشياء المادية عن الأشياء الروحية تماماً ، وقـــد أصبح الهيكل الجسماني وميكانيته الفسيولوجية Physiological mechanism أكبر وأكثر أهمية من الخيال واللذة والحزن والجمال . وبسبب هـذه

الغلطة سلك التمدنُ طريقاً نجح فيه العلم ، ولكن الإنسان هو الذي سقط في هاوية الانحطاط .

« وللوصول إلى الطريق الصحيح يجب علينا أن نتجه إلى الأفكار التي وجدت في عصر النهضة فيجب علينا أن نرفض فكرة الثنائية Dualism التي نادى بهـا ديكارت ؛ يجب أن يستعيد الدماغ مكانه داخل المادة ، وألا نفصل الروح عن الجسم في المستقبل ؛ وفي الوقت نفسه : يجب أن نهتم بالعواطف اهتمامنا بقانون الحرارة الحركية ..

« إنه لمن الصعب التحرر الكامل من قبضة نظرية سيطرت على عقول المثقفين لأكثر من ثلاثمائة سنة . ولكن لو تمكنا — مع ذلك — من تحقيق هذا التحرر الذي يبدو صعباً لأحرزنا نتائج غير عادية . إن سيادة (المادة) ستنتهي ، وستصبح دراسة الأعمال الأخلاقية والجمالية والدينية هامة كدراسة الرياضيات والطبيعة والكيمياء ، وسيتساءل خبراء الصحة في هذا الوقت :

«لماذا نولي كل عنايتنا لمكافحة الأمراض الجسمية؟ ولماذا لا نبحث عن علاج للأمراض العقلية والعصبية ؟

« كما أن الأطباء سيدرسون صدمات الأخلاط البدنية Humours كما يدرسون صدمات الأعضاء ، وسيجب عليهم معرفة تأثير الدماغ على الأنسجة ، وتأثير الأنسجة على الدماغ ، إلى آخره [1] .

وفي نهاية كل هـذا سنصل إلى حقيقة هامة هي أن الأصل في مشكلات

---

(١) Man The Unknown (1961) PP 257 — 63.

الانسان هو التقدم غير العادي في مجال العلوم المادية ، بينما ظلّ علم الانسان لنفسه – أي علم الأجسام الحية – في حالة بدائية؛ ولولا هذه الحقيقة لكنا قد رأينا الانسان في حالة أخرى كتلك الحالة التي نرى فيها « الزفت » الأسود ذا الرائحة الكريهة يتحول إلى منتجات ملونة جميلة أو كقطعة الحديد القبيحة التي تتحول إلى ماكينة جميلة نافعة .

وعلى حدّ قول الدكتور كاريل :

« نحن ضحايا تخلف علوم الحياة عن علوم المادة »

(We are victims of the backwardness of the Sciences of Life over those of matter).

ويضيف الدكتور كاريل :

« لا علاج لهذه المشكلة إلا باكتساب المزيد من المعرفة العميقة عن ذاتنا ، وهذه المعرفة هي التي ستمكننا من فهم الطرق التي تؤثر بها الحياة الحديثة (*) على شعورنا وأجسامنا ، وسنتعلم بها كيف نصوغ أنفسنا وفقاً لبيئتنا المحيطة بنا، وكيف نغير هذه البيئة إذا كان ذلك ضرورياً ، وهذه المعرفة – أيضاً – ستدلنا على ضعف أفعالنا ، وعلى أمراضنا الخلقية والعقلية ، ذلك لأنها سوف تُظهِر نوعية استعدادنا في ضوء فطرتنا الحقيقية، وستُظهِر لنا طرق إبراز هذا الاستعداد.

« وحقيقة الحقائق أننا نفتقد الوسائل اللازمة لمعرفة القوانين الثابتة لنشاطنا الروحي ، وللتمييز بين الحرام والحلال ، ولمعرفة إمكانية كوننا أحراراً في بناء ذاتنا وبناء بيئتنا .

(*) أي الحياة المتأثرة بالأساليب والوسائل المستحدثة نتيجة الثورة الصناعية – المترجم .

« لقـــد اكتسب علمُ الإنسان Science of man أهمية عظمى بالنسبة لسائر العلوم الأخرى ، لا سيما بعـــد أن هدمت الحضارةُ الحديثة الأحوال الطبيعية للحياة » [١] .

ولكن كيف يمكن الحصول على هذا العلم ؟

« نحن نسمع كل سنة أن العلماء قد أحرزوا نجاحاً باهراً في ميادين تكاثر النسل والتوالد والإحصاء والأخـــلاق والعادات والتشريح والكيمياء والطبيعة والنفس والصحة العامة والتربية والاجتماع والاقتصاد وما إلى ذلك . ولكن نتائج هذا النجاح الذي نسمع عنه تُعتبر – في حقيقتها – غـــير هامة بصورة كبيرة بالنسبة للحياة ، وأهم سبب لهذا الإخفاق هو أن هذه الذخيرة العظيمة من المعلومات مختزنة في مختلف الأدمغة والكتب، ولم يتمكن فرد واحد – بعدُ – من استيعابها .

« ولكي نتمكن من تحقيق الاستفادة الحقة من هذه العلوم فإن من الواجب علينا أن نعمل على جمع هذه الذخيرة في دماغ فرد واحد. وحينئذ فقط سنتمكن من الاستفادة الصحيحة من هذه العلوم .

« ولكن هل من الممكن لفرد واحد استيعاب كل هذه العلوم ؟ هـــل يمكن لفرد واحد أن يبرز في علوم التشريح والفسيولوجي والكيمياء الحياتية والنفس ومـا بعد الطبيعة والطب ... ثم يكون علماً بكل العلوم الأخرى بصورة عميقة ؟ إن هذا – بالطبع – غير

---

(١) المصدر السابق ، ص ٣٩ .

ممكن (*) ومع ذلك فـإذا نجحنا في أن نجعل فرداً واحداً يستوعب هـذه العلوم بعد دراسة مستمرة لها لمدة خمس وعشرين سنة مثلاً ، فإن مائة عالم من هـذا الطراز سيكون بإمكانهم – بعد بلوغ سن الخمسين – القيام بقيادة مؤثرة في الحياة الإنسانية وحركة الحضارة .

وأيضاً :

نحن في حاجـة إلى مراكز تتاح فيها للإنسان التربية المناسبة لجسمه وعقله وفق القوانين الفطرية . وأول أهداف هذه المراكز أن تعطي سائر العلوم المتعلقة بالإنسان صورة « علم كلي » كما أن من أهدافها إنشاء جماعة من الباحثين والعلماء –على النسق السابق الذكر– وليس لنا أن نسلّم مفاتيح هـذه المراكز إلى الخبراء المتخصصين ، بل يجب أن يتصدى لإدارتها هؤلاء العلماء المتبحرون في كل العلوم ، وأمـا الخبراء المتخصصون فسيكونون مجرد مساعدين لهؤلاء العلماء المتبحرين العموميين ؛ إن عـالم النفس والكيميائي وعـالم الاجتماع لا يعرفون الماهية الكلية للإنسان بسبب جهل كل واحد منهم بالحقائق التي لا تتعلق بميدان تخصصه ، وهؤلاء بالتالي – كما ذكرنا – لا يمكن الاعتماد عليهم فيما لا يتعلق بمجال اختصاصهم .

« وتوجـد الآن – حقيقةً – مراكز ممتازة كثيرة تقوم بأعمال عظيمة في مختلف المجالات . ولكن أبحاث هـذه المراكز لا تكفي لتحقيق الهـدف الآنف الذكر . إن الرياضيات والطبيعة والكيمياء

(*) أي أن (الامتياز) في كل هذه العلوم مستحيل ، أما استيعابها فممكن في نظر الدكتور كاريل – المترجم .

علوم لا بد منها، ولكن لا يمكن الاعتماد عليها كعلوم أساسية للبحث في النظام الجسماني الحي . إن هذه العلوم لا يمكن أن تخلق أفكاراً هي من اختصاص الإنسان . يجب أن يفهم الباحثون في علم الحياة أن هدفهم ليس دراسة النظم الحية المجردة أو المصطنعة ، بل إن هدفهم الأكبر هو دراسة النظام الجسماني الحي ، وعليهم أن يعرفوا أن علم « الفسيولوجي » الذي اكتشفه بيليس Bayliss ليس إلا جزءاً صغيراً من هذا العلم الأساسي .

« إن دراسة هذه المشكلات سوف يتطلب من العلماء جهداً مستمراً لعدة أجيال فيجب أن يكون لدينا مركز لمثل هذه الدراسة المتعلقة بعلم الإنسان بحيث يستمر عمل هذا المركز ما لا يقل عن قرن من الزمان دون أن تعطّل حركته أيةُ عوائق . ويجب على الذين يقومون بالجهود العقلية أن يتحدوا في جبهة واحدة ليستطيعوا القيام بخلق عقل عملاق غير فانٍ يتمتع بالقدرة على التفكير في مستقبله ، وبالقدرة على بناء ذلك المستقبل ، وعندئذ فقط سنتمكن من الحصول على النظريات الدائمة عن التقدم الإنساني » [١] .

هذه هي خلاصة أفكار الذين يريدون إنشاء دين إنساني يحلّ محل الدين الإلهي رويناها على لسان الدكتور ألكسيس كاريل الذي استعرض من خلال كتابه القيم تطورات علم الإنسان ، ثم اختتم صفحات الكتاب بقوله :

« لأول مرة في تاريخ البشرية تتمكن حضارة بالية من معرفة

---

(١) المصدر السابق ، ص ٢٦٤ — ٢٧٦ .

أسباب انحطاطها . ولأول مرة تتمكن الحضارة من السيطرة على قوة العلم العظيمة ..

« ولكن هل يستخدم هذا العلم بكل طاقاته هذه ؟

« إن استخدام العلم بكل طاقاته هو أملنا الوحيد للإفلات من القدر الذي كان يتربص بكل حضارات الماضي العظيمة .

« إننا نملك الآن قدرنا ، وعلينا أن نسير في طريق جديد » [١].

التحليـــــل:

يتبين لنا من تحليل هذا الفكر أنه يتضمن عدة أخطاء أساسية أهمها:

أولاً : هناك فرق أساسي بين العلوم المادية وبين العلوم الانسانية ، وهذا الفرق هو الذي يؤكد أن الانسان لن يفهم ذاته عن طريق علوم مختلفة تماماً عن ماهيته، إنه لن ينجح في فهم ذاته بنفس الطريقة التي يفهم بها الأوصاف الظاهرية للمادة . وليس جوهر القضية أننا لم نبذل الجهـد المناسب في تشييد العلوم الإنسانية ؛ فالحقيقة أن تاريخ البحث في العلوم الإنسانية أقـدم بكثير جداً من تاريخ البحث في العلوم المادية . ولكن بالرغم من هذا التاريخ الطويل من البحث في العلوم الإنسانية فإننا لم نحرز أي نجاح يذكر في هـذا المجال ، وعلى حد قول الدكتور كاريل :

« إن كلاّ من الملحد والروحاني يتفقان عـــلى تحليل قطعة الصوديوم كلورايد (الملح) ولكن شتّان بـين رأييهما حول الذات الانسانية » [٢] .

---

(١) المصدر السابق ، ص ٢٩٨ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٧ .

[التشديد مضاف]

إن أية دراسة أو بحث لم يثبت لنا حتى الآن أن هذا الوضع قد يتغير في المستقبل . فعلى أي أساس يمكن لنا أن نتفاءل ونعتقد بأن الإنسان سوف يتمكن في المستقبل من كشف أسرار الحياة بنفسه . لقد نقد الدكتور كاريل أولئك الذين يطبّقون المعلومات المتعلقة بالدنيا المادية على الذات الإنسانية . إنه يقول :

« إن القانون الثاني للحرارة الحركية – أي مبدأ انتشار القوة المستهلكة – يمكنه أن ينفعنا على سطح الجُزَيْئَات ، ولكن لا يمكن استخدامه في علم النفس حيث ان المبدأ الذي ينطبق على هذا الأخير هو « القليل من الجهد والكثير من الراحة » . إن قوة الجذب ، والدفع الشعري وأفكار الضغط النفوذي لا يمكن أن تكشف لنا عن حقيقة القضايا التي تمسّ الشعور . إن تفسير الظواهر النفسية بمصطلحات فسيولوجية الخلايا أو الميكانيكا الكمية Quantum mechanics **ليس إلا مجرد لعب بالكلمات »** [١] .

ولكن الدكتور كاريل عندما يقول لنا : إن العلوم الإنسانية يمكن اكتشافها تماماً مثل العلوم المادية ، فإنه في الحقيقة يعيد ويكرر نظرية الفسيولوجيين الميكانيكيين Mechanistic Physiologists (في القرن التاسع عشر) بأسلوب جديد ؛ وذلك لأن المعلومات التي تمكنا من الحصول عليها عن الإنسان لا تعدو حدود المعلومات التي تسمى بـ «الوصفية» Descriptive أي تلك التي تتعلق بالناحية المادية فقط من الإنسان. **ولهذا فان جميع نظريات أولئك الذين يحاولون فهم الانسان بعيداً عن هدى الدين**[*] **ستكون بالضرورة**

(١) المصدر السابق ، ص ٤٣ .

[التشديد مضاف]

(*) يقصد المؤلف بهم أصحاب الدين الانساني مثل كاريل – المراجع .

مستمدة من عنصر مادي ، وبالتالي لن يكون هناك مـــا يفرقهم عملياً عن ملحدي القرن التاسع عشر .

ثانياً : وكما اعترف الدكتور كاريل، فإن « علم الإنسان » لا يمكن وضعه عن طريق لجان ومؤتمرات خبراء العلوم المختلفة ، بـل يجب أن يكون لدينا عالم واحد خبير بكل هذه العلوم :

« إن هذا الكمال الجامع لا يمكن الحصول عليه بعقد مؤتمر لخبراء العلوم المختلفة ، وإنما فقط عن طريق إعداد رجل واحد ملم بكل هذه العلوم ، فهو وحده الذي يستطيع القيام بهذا العمل . إن فناناً عظيماً لم يظهر نتيجة إنشاء لجنة من الفنانين ، ولا توصلت مجموعة من الباحثين بجهود جماعية إلى اكتشاف خطير . إن صهر العلوم في بوتقة إنسان واحد ، والذي لا بـد منه لنهضة البشرية يجب أن يكون في دماغ واحد » [١] .

ولكن إعداد رجل من هذا النوع مستحيل في ضوء الأحوال القائمة حتى الآن ؛ وذلـك لأن الإنسان مكبّل بقوانين العمر والشيخوخة الحتمية . ولم نكتشف حتى الآن أي طريقة لدرء الشيخوخة أو منع الموت . وفي ضوء الظروف القائمة ، فإن العمر الذي يتمتع بـه فرد واحد لا يكفي حتى لمجرد الامتياز في فرع علمي واحد ، فكيف بهذا الإنسان الذي يتمنى استيعاب كل العلوم في هذا العمر المحدود بحدود الشيخوخة والموت .

وقد قرر الدكتور كاريل أن فترة ٢٥ سنة تكفي للامتياز في سائر العلوم،

---

(١) المصدر السابق ، ص ٥٥ .

وإنها لجرأة مدهشة منه. لقد حاول «كارل ماركس» دراسة علم الاقتصاد وحده، وصرف فيه ٣٥ سنة من أعز سنوات عمره دون أن تكتمل له دراسته. وعلى الرغم من هذه الدراسة الطويلة فإن ماركس لم يتمكن إلا من تأليف جزء واحد من كتابه «رأس المال» فكيف لكاريل أن يفترض أن ٢٥ سنة ستكفي للامتياز في جميع العلوم؟

والأمر لا يقف عند هذا الحد، فإن الإنسان شيء معقد للغاية، أو بتعبير أحد المفكرين: (**إنه مجموعة من الأضداد** Mixture of Opposites **لدرجة أنه من المستحيل أن ننشىء رأياً غير مشكوك فيه عن الانسان!**) أما في حالة الجهل وقلة المعلومات، فمن الممكن أن ينشأ لدينا ذلك اليقين الذي يسميه الدكتور كاريل بـ «الثقة الغامضة» Jllusive Confidence (ص٢٣١). ولكن ما إن تكثر المعلومات لدينا حتى نواجه أسئلة متناقضة من كل نوع، ويصبح من المستحيل التوفيق بينها والوصول بالتالي إلى رأي حتمي. وهذا هو السبب في أن آراء الخبراء في مختلف الفروع كثيراً ما تختلف اختلافاً كلياً حول شيء واحد. فعلى سبيل المثال يرى واطسن Watson وآخرون ممن يسمّون بالسلوكيين Behaviourists أنه لا شيء يسمى بـ «الصفات الوراثية»، وأنه يمكن صياغة الإنسان في أي صورة باستخدام التعليم والبيئة. وعلى العكس من هذا يؤمن علماء نظرية التوالد والتناسل Geneticists أن الصفات الوراثية هي التي تقرر قدر الإنسان، وأن نجاة الشعوب ليس في تعليم أبنائها وتربيتهم فقط، بل في إنجاب نسل إنساني أجود.

وفي هذه الحال سيكون فرضاً خيالياً إلى أبعد الحدود أن نعتقد أن واحداً أو نفراً من العلماء سيدرسون جميع العلوم لمدة طويلة ثم لا تطرأ على

أذهانهم نفس تلـك الاختلافات والانقسامات التي طرأت على أذهان العلماء المتخصصين في علوم مختلفة .

ثالثاً : لقد تجاهل الدكتور كاريل تجاهلاً تامـاً أن الانسان مخلوق أبرزُ صفاته أنه ذو إرادة ، وهذه الصفة تميزه عن جميع الكائنات المادية . ونحـن إذا استخلصنا نتيجة ما من دراسة شيء مادي ، فإنه يحق لنا أن نعتقد أن جميع الأشياء المـادية سوف تعطينا النتيجة نفسها إذا كانت في ظروف مماثلة لذلك الشيء المادي الذي أجرينا عليه الدراسة. ولكن قضية الإنسان تختلف فالإنسان يستطيع أن يغير نفسه في أية لحظة يريد لأنه صاحب إرادة حرة ، وكما يعترف الدكتور كاريل نفسه بقوله :

« هناك فرق عجيب بين علم المادة الحديث وبين علم الحياة . إن علوم الهيئة والميكانيكا والطبيعة مؤسسة على تصورات يمكن بيانها باختصار وفي أسلوب جميل وفي لغـة رياضية . أما العلوم الحياتية فهي ليست من هذا النوع . إن الذين يبحثون في مظاهر الحياة كمن يدخل غابة طلسمية توجد فيها آلاف مؤلفة من الأشجار الملونة التي تغير مواقعها وأشكالها بصورة مستمرة ، وإنـه ليستحيل الخروج من تلك الغابة بعد دخولها مرة واحدة . فهؤلاء الباحثون في عـلم الحيـاة ستصبح عقولهم مشلولة لا لشيء إلا بسبب كثرة الحقائق المطروحة أمامهم . وحقيقة أنهـم سيستطيعون أن يعبّروا بعض الشيء عما يرونه، ولكنهم لن يستطيعوا التعبير عن الحقائق في مثل وضوح معادلات الجبر والتقابل » [١] .

---

(١) المصدر السابق ، ص ١٥ .

[التشديد مضاف]

ولهذا أقول : إن محاولة تقديم تفسير لعلم الانسان بحيث ينطبق على كل إنسان ضربٌ من المستحيل وجريٌ وراء السراب . والحقيقة أنه لا حلّ لمشكلات الانسان إلا بالسيطرة على إرادة الانسان حتى يفعل الانسان بمحض إرادته ما نريده منه . إن مجرد الضغط على زرٍّ معين في « محطة » الكهرباء يكفي لإنارة شوارع مدينة كاملة ، لكن ليس هناك قانون واحد ينطبق على كل إنسان. فالإنسان يغير نفسه بإرادته الذاتية ، وليس هناك عامل خارجي يمكنه أداء هذه الوظيفة . وهـــذا الجانب يجب ألا يفوت الباحثين في علم الإنسان .

رابعاً : إن فكراً من هـذا النوع يفترض أن اللاأخلاقية والسيئات الاجتماعية والجرائم : « أمراضٌ » عصبية أو عقلية ، وأنه يمكن علاج هذه الأمراض في المستشفيات تمامـــاً كما نعالج حبوب الجلد أو القروح أو الزكام أو الحمى !!

وبعبارة الدكتور كاريل :

« إن الحسّ الأخلاقي أيضاً كالنشاط العقلي ينحصر في بناء الجسم وحالة أفعاله . إن هـــذه الأحوال نتيجة طبيعية لأنسجتنا والبناء الطبيعي لدماغنا . وهذه الأحوال ذات علاقـة بالعوامل التي أثرت فينا أيام نشوئنا الطفولي . لقد أبدى « شوبنهور » رأيـــاً في مقاله — الذي قدمه إلى اللجنة الملكية العلمية في كوبنهاجن — جاء فيه أن الأسس الأخلاقية لهـــا جذور في طبيعتنا . وبكلمة أخرى : فإن عواطف الرحمة أو الأنانية أو الدناءة فطريةٌ في الإنسان » (١) .

---

(١) المصدر السابق ، ص ١٢٧ .

إن هذا الفكر محض هراء فلا شك أن هناك أسباباً كثيرة تحرك الانسان إلى اقتراف جريمة ما ، ولكن كل هـــذه الأسباب بكل تأكيد أسباب ثانوية وإضافية لان السبب الاول والاساسي في وقوع جريمة مـا هو « إرادة الانسان »لا غير. ولا يمكن القضاء على العقلية الاجرامية إلا بالسيطرة على « إرادة » الانسان إنه من المستحيل قطعياً أن نعالج المجرمين الاخلاقيين في المستشفيات (*) كما نعالج المرضى الجسمانيين ذلك لأن الجريمة حادثة وقعت بالارادة والتعمد ، وأما المرض فهو حادثة مادية غير متعمدة إن جرّاحينا يستطيعون تحريك المبضع في جوارح الانسان المريضة إلا أنهم لا يستطيعون استئصال إرادة الانسان المجرمة . ولهـــذا السبب نفسه لا يمكن للأطباء والجراحين السيطرة على المرضى الاخلاقيين : مرضى « الارادة المجرمة ». والحقيقة أن الارادة الانسانية لا يمكن تقويمها بهذه الاساليب الاصطناعية ، ولا سبيل إلى ذلك إلا باستعادة العقيدة الدينية فتقوى الله وحساب الضمير وخوف الآخرة هي العوامل التي يمكنها تجنيب الانسان اقتراف « الذنوب » التي نسميها الجرائم الأخلاقية .

خامساً : لقد سلّم المؤلف أنـــه ليس بمقدور الإنسان أن يصل إلى علم الحياة بجهوده الذاتية ، ولكنه بالرغم من هذا الاعتراف الصريح يقيم أمـــلاً واهياً بدون أساس علمي واقعي يعتقد فيه أنـه بإمكان الإنسان الوصول إلى ذلك العلم ... إنه يكتب :

(*) من هنا نستطيع إدراك التردي الكبير الذي سقطت فيه المذاهب الوضعية التي حاولت علاج الجريمة بالسجن أو بتحويل السجن إلى مستشفى !!

إن الجريمة انبعاث إرادي لا يقضى عليه – كما ذكر المؤلف – إلا بانبعاث إرادي مضاد ... وإلا.. باستئصال أداة الجريمة نفسها .. وهذا هو السر في مشروعية الحدود الاسلامية – المراجع

« إن التقدم البطيء في علم الإنسان مقابـــل التقدم المدهش في ميادين الطبيعة والهيئة والكيمياء والميكانيكا يرجع إلى ندرة الفرصة أمـــام آبائنا وأجدادنا ، وإلى تعقّد الموضوع ذاته ، وإلى التكوين الخاص لأدمغتنا .. إن هذه العوائق أساسية ، وليس هناك من أمل في إزالتها .

« There is no hope of eliminating Them » .

« إنـه لا يمكن التغلب على هـذه العوائق إلا بشق الانفس . إن علمنا عن ذاتنا لن يُكسبنا بساطة الطبيعة والتجريد والجمال. ولعله من المستحيل إزالة العقبات التي حالت دون تقدم هذا العلم . إنـه يجب أن نعترف بكل صراحة أن علم الانسان هو أصعب العلوم على الاطلاق » [١] .

لقد اعترف كل المفكرين المعاصرين بهذه الصعوبة في العلم الإنساني ، وعلى سبيل المثال يقول « جوليان هكسلي » :

« إنه من المقرر أن نهاية فكرة (الإله) ليست نهاية للدين . إن نهاية الإله ليست إلا في مفهوم نهـاية الاعتقاد بـ (عمل) الإله . ولكن تلك الأحاسيس الدينية التي أوجدت الإله لا تزال باقية . إن نهـــاية الإله تعني الدعوة إلى بناء جديد للدين بمعنى أن الإنسان سوف يحمل من الآن على كتفه العبء الذي كان قد ألقاه على كتف الإله . إن أهم مطلب لهذه المسئولية هو الكفاح ضد عالم الأسرار وضد جهلنا به .

---

(١) المصدر السابق ، ص ٢٣ .

[التشديد مضاف]

« كان الناس فيما مضى قد ألقوا هذا العبء على كاهل إلهٍ خارج عن دائرة الفهم والإدراك. والآن يجب أن يتحمل (جهلُنا) مسئولية هذا العبء ، **ويجب أن نستعد لمواجهة الحقيقة في هذا الموضوع ، وهي أن جهلنا بالحقائق النهائية سوف يستمر إلى الابـــد بسبب فطرتنا المحدودة »** [1] .

ما أكثر إثارة هـــذا التناقض للعجب وللدهشة فنحن من ناحية نعترف بعجز الانسان الأبدي في الوصول إلى علم الانسان، ولكننا من ناحية أخرى نحلم بأن يتمكن هذا الانسان العاجز – في آخر الأمر – من تحطيم هـــذه العقبة ؛ وهذا بالرغم من أن هذه المشكلات لا حلّ لها إلا بعد السيطرة على علـم الانسان نفسه . فما أعجب أمر هـذا الانسان عندما يُشير له سهمٌ في الطريق إلى (الله) يأبى هو إلا أن ينعطف إلى الطريق المعاكس !!

---

(١) Man in The Modern World, P 133.

[التشديد مضاف]

الفصل الثامن

التفسير الإلحادي للدّين

« إنه على الرغم من أن كلمة (الدين) موجودة في التفسير الجديد للدين ، ولكن (الدين) هنا في صورته الحقيقية والعملية لا يختلف عن الإلحاد الكامل في شيء » .

« في ضوضاء هذه الدراسة الاجتماعية والتاريخية المزعومة يضيع (أصل الدين) في هذا التفسير المستحدث فيصبح الدين مجرد ظاهرة اجتماعية ، ويفقد قيمته الحقيقية في توجيه الحياة والمجتمع وهداية الانسان لما فيه خيره في الدنيا والآخرة » .

إن مفكري العصر الحديث لا يعترفون بأية طرق للمعرفة يختص بها إنسان واحد ولا يمكن للآخرين تجربتها . وهؤلاء يرون أن مطالبة الناس بالإذعان لأمر ما — على الرغم من خروج هذا الأمر عن نطاق إدراكهم — لا يدل على أنه غير منطقي فحسب ، بل يدلّ كذلك على أنه زائف أيضاً ؛ ولو لم يكن ذلك الأمر زائفاً لكان في إمكان الآخرين تجربته والتوصل إليه .

والآن ، حيث أن الدين لا يزال موجوداً كأمر واقع منذ بدء التاريخ البشري على الأرض ، وحيث أنّ المتدينين موجودون في كل العصور ، ولا يزالون موجودين رغم نبوءة أغسطس كانت (١٧٩٨ — ١٨٥٧) ؛ فقد وجب على المفكرين المعارضين أن يقدموا تفسيراً إلحادياً للدين بالرغم من عدم اعترافهم به . وعندما يحاولون تفسير الدين تسرح أذهانهم — بصورة طبيعية — إلى ما يظنون أنها وقائع مماثلة (للوحي) ، وسرعان ما يجدون جوابهم في ظاهرة « الشعر » ويصرخون من فورهم : إن الدين مثل كل الأعمال العقلية ليس إلا نشاطاً ذهنياً Mental Activity ، ولا شيء أكثر من ذلك .

ويرى المؤرخ « أرنولد توينبي » أن هناك أسلوبين لإدراك الحقيقة : أولهما « **الأسلوب العلمي** » الذي يعتمد على المشاهدة والتجربة ؛ والآخر هو « **الأسلوب الشعري** » الذي يفيض من الداخل . والحقيقة التي نصل إليها

عن طريق الأسلوب الأول تسمى « الحقيقة العلمية » ، بينما تسمى الحقيقة التي نحصل عليها عن طريق الأسلوب الثاني بـ « الحقيقة الشعرية » .

يقول توينبي :

« On The Poetic Level Of The Subconscious Psyche, The Comprehensive Vision Is Prophecy. »

« إن المشاهدة القابلة للفهم على السطـــح الشعري من اللاشعور تسمى النبوّة [١] » .

ويرى محرر دائرة معارف العلوم الاجتماعيـة أنه يمكن تشبيـه (الدين) بـ (الفن) Art !! فكما أن بعض الناس يتمتعون بقوة غير عادية في التذوق الفني ، ويبرزون في المجال الفني كذلك ينفرد بعض الناس بخصائص « العيون والآذان الداخلية » Inner Eyes And Ears ، يلتقطون بها مـــا لا يتمكن الإنسان العادي من سماعه أو رؤيته . « وهذا الشيء هو الذي قـاد الإنسان إلى تجارب الدين [٢] » .

ويكتب ت. ر. مايلز T. R. Miles :

« إن خصائص الدين المتعلقة بما بعد الطبيعة لا معنى لها إذا نظرنا إليها بمفهومها الديني . أما إذا أعطينا هذه الحقائق لغة المجاز فـإنها قد تصبح ذات معنى مثلما نقول عن شخص مـــا إذا اكتشف شيئاً جديداً : « لقد كان هذا إلهاماً » !! فهكذا « يتنزّل » الإلهام على

---

(١) An Historians Approach To Religion, p 123.

(٢) Encyclopaedia Of The Social Sciences (1957), Vol 13, p230.

الشاعر ، وكذلك على النبي[١] » .

ويرى « مايلز » أن الوحي لا معنى له إذا نظرنا إليه على أنـه كلمات الله التي نقلها أحد الملائكة إلى إنسان مخصوص . وهـو يقول : إن أمر الوحي يكون مفهوماً لو قلنا عنه إنه « ضوء البصيرة الداخلية » Flush Of Insight لأننا نعرف أن الفنان أو المفكر كليهما تخطر له بصورة خاطفة أفكارٌ من نوع ما[٢] . وهكذا (الحياة بعد الموت) يمكن فهمها في لغة تمثيلية ، أمـا إذا نظرنا إليها بالمفهوم اللفظي الظاهري فإنها تصبح بدون معنى ، وذلك لأننـا نعرف أن الجسم تنتشر أعضاؤه بعد الموت وتنتهي معه الروح ففي ضوء هذا الأمر تكون الحياة بعد الموت غير مفهومة بمعناها اللفظي[٣] .

أما أليكسيس كاريل فيشبّه « الوحي » بالمعرفة الصوفية . ويرى أن البحث عن الله : « **مشروع ذاتيّ لشخص ما** » Personal Undertaking ! فكما أن شخصاً ما قد يصبح مصارعاً بجهوده الشخصية في الرياضة البدنية ، كذلك فبإمكان شخص آخر بنبذه الملذات وبالعبادة أن يصل إلى المعرفـة الروحانية .

يقول كاريل :

« إن الإنسان بترويض نفسه يحاول الوصول إلى حقيقة غير قابلة للمشاهدة بالرغم من أنها حقيقة فطرية أسمى من العـالم المادي . وفي سبيل هذا الهدف يعرّض الإنسانُ نفسه لامتحانات خطيرة لا يمكن لأحد أن يجرؤ على التصدّي لها . وقد يمكن لواحد من الناس أن

---

(١) Religion And The Scientific Outlook, pp 195 - 96.

(٢) المصدر السابق ، ص ١٩٦ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٢٠٤ .

يعتبر هذا الإنسان بطلاً ، بينما يرى إنسان آخر أنه مجنون . وأياً كان الأمر فإنه لا يصح لأحد أن يتساءل : هل التجربة الروحية صحيحة أم لا ، وهل هي مصطنعة أم مجرد وهم أم أنها رحلة روحية بعيدة عن أبعاد العالم المادي تنتهي إلى التحاق الروح بالحقيقة العليا .

«**إن المعرفة تبعث الطمأنينة والرضا تجاه أسمى الأماني البشرية. إن القوة الداخلية والنور الروحي والحب الالهي والسكينة اللامحدودة والوجدان الديني – إن كل هذه الظواهر حقيقية بنفس الدرجة التي نعتبر بها الحس الجمالي حقيقة.** إن العارف بالله والشاعر يصلان إلى الحقيقة النهائية عن طريق تصور الجمال . فوق البشري [١] » .

المناقشة والنقد :

إن التفسير الجديد للدين ذلك الذي استعرضته آنفاً يجدر بي أن أورد عنه تلك الكلمات التي وصفه بها الدكتور كاريل من خلال وصفه لمحاولته هو.. يقول كاريل ما نصّه :

« إن المؤلف (يعني نفسه) يعترف بأن تفسيره للأعمال العقلية المتعلقة بالدين لن يعجب العلماء ولا المتدينين . فأما العلماء فسينظرون إلى هذا التفسير على أنه محاولة طفيلية أو جهد لا معنى له ، وأما المتدينون فسيرفضونه ـ على أنه في رأيهم ـ تفسير باطل وفضولي [٢] ».

---

(١) Man The Unknown, p **134**.

[التشديد مضاف]

(٢) المرجع السابق ، ص ١٣٢ .

إنه على الرغم من أن كلمة (الدين) موجودة في التفسير الجديد للدين، ولكن(الدين) هنا في صورته الحقيقية والعملية لا يختلف عن الالحاد الكامل في شيء .

وسألخص نقدي لهذا التفسير الإلحادي في النقاط التالية :

أولاً : يصبح الدين شيئاً باطلاً في ضوء هذا التفسير الغريب الذي يرى أنه لا وجود لله ولا للآخرة والوحي ، بل إنها في رأي مهندسي التفسير الجديد أشياء اختلقتها قوّة التخيُّل البشرية .

وفي الحقيقة فان أبعد شيء عن القياس أن ندعي أن الدين من الأشياء الخيالية ، ونحن نعرف – كل المعرفة – تلك المكانة العميقة التي حفرهـــا الدين لنفسه في العقول الانسانية منذ الأزل حتى الآن ، فلو كان الدين شيئاً خيالياً لما حظي بهذه المكانة في النفس الانسانية عبر الدهور .

يقول المؤرخ توينبي :

« إننا لو قمنا بعمل إحصائيـــة عن (الدين) الذي ساد مختلف الأمكنة والأزمنة والمجتمعات والجماعات البشرية ، والتي نعرف عنها أدنى قدر من المعلومات ، فإن انطباعنا الأول عن هذه الإحصائيـة سيكون محيّراً بدون حدود وبصورة مدهشة ؛ ولكن سيتضح لنا بعد التفكير والتحليل أن عبادة الإنسان أو بحثه عن الدين لم يتجاوز ثلاثة أشياء هي : (الطبيعة) و (الإنسان نفسه) و (الحقيقـــة المطلقة) التي ليست هي الطبيعة وليست هي ذات الإنسان كذلـك بل هي شيء آخــــر يختلف بالرغم من أنها داخل الطبيعة وداخل الإنسان في الوقت نفسه(١) » .

(١) A Historian's Approach To Religion, p **16**.

فالتاريخ يدلنـا على أن الانسان كان مشغولاً دائماً بالبحث عن الحقيقـة المطلقة منذ الأزل ، وفي كل المجتمعات والأزمنة . فهل من الممكن أن يسود شيء « فرضي » التاريخ الانساني بأكمله ؟! هل يمكن لأحد أن يدلنـــا على شيء آخر – فرضي وغير حقيقي – أثـّر في نفس الانسان بهذا الأسلوب الشامل الدائم . ونحن على يقين من انهيار الأساس الأول في ادعاء المعارضين لأننا على يقين من إخفاقهم في الاجابة على هذا السؤال .

ثانياً : إن الدين في ضوء التفسير الجديد لن يصبح شيئاً واحداً بل ألفَ شيء وشيء . فبما أن الدين في زعم هذا التفسير عملٌ ذهنيّ للإنسان ، فإنـه يمكن بالتالي أن يخترع كل إنسان ديناً من نوع خاص وفق هواه و كفاءتـــه وجهده ؛ هذا على حين أن كون « الدين » حكماً إلهياً يستوجب ظهوره في شكل واحد محدد حتى يمكن الحكم في ضونـه على سلوك البشر الصالح منها والمنحرف . وحيث ان تصور هؤلاء عن الدين يختلف عـن التصور الصحيح فلذلك يحدث فرق أساسي بين نظرتهم إلى حقيقة الدين وبين التصور الصحيح له . يقول توينبي :

« إن عقائد مجموعات مختلفـة يجب أن تختلف ، لأن « الحقيقـة المطلقة » سرٌ لم تنكشف على الذهن الإنساني إلا ومضةٌ منه . إن حقيقة عظيمة كهذه لن تنكشف لمجرد السير على درب واحد . ومهما كانت عقيدتي قوية وراسخة عن صحة إدراكي ، فـإن عليّ ألا أجهل أن نظرتي الروحية محدودة ، وليس لي أن أدعي أنـــه لا وجود لمشاهدات أخرى عدا مشاهدتي الذاتية . وفي الاصطلاح الديني يمكن أن يصاغ هذا الكلام بطريقة أخرى فيقال: إنه لا يحقّ لي أن أدعي أن الله لم يوحِ إلى الآخرين دوني . وهكـذا فمن الممكن أن يكون

الإلهام الذي تلقاه الآخرون — غيري — أكمل وأرقى من إلهامي. فأنا وزميلي المُلْهَم الآخر ننطلق إلى هدف واحـد بسلوك طريقين مختلفين . إن جميع البشر يتمنون الوصول إلى الحقيقة المطلقة المستترة ليتمكنوا من بناء حياتهم وفق حقيقة الحياة ، أو بتعبير اللغة الدينية : يريدون ذلـــك كي يتمكنوا من إرضاء الله . إن جميـع هؤلاء النـاس مشغولون ببحث من نوع واحد . إننـــا يجب أن نعتبرهم إخوة روحيين .

ولن تكتمل فضيلة (التسامح) حتى تتحول إلى (محبة)[1] » .

وهكذا يختلف أصحاب التفسير الجديـد للدين في نظرتهم إلى (الإله) ولذلك لا نستغرب حين نجد أن محرري « دائرة معارف الدين والأخـلاق » قد « اكتشفوا » اثنين وعشرين تصوراً للإله في ضوء الدراسة الاجتماعية ، وقد شرحوا هذه التصورات تحت اثنين وعشرين عنواناً مختلفاً[2] !

وفي ضوضاء هذه الدراسة الاجتماعية والتاريخية المزعومة يضيع (أصل الدين) في هذا التفسير المستحدث فيصبح الدين مجرد ظاهرة اجتماعية ويفقد قيمته الحقيقية في توجيه الحيـاة والمجتمع وهـداية الانسان لما فيه خيره في الدنيا والآخرة .

ثالثاً : ونجد أيضاً أن مصطلَحَيْ النبوة وختم النبوة تصبحـــان مجرد كلمات لا معنى لها في قاموس التفسير الجديد للدين .

---

(١) المصدر السابق ، ص ٢٥١ .

(٢) أنظر مادة (Cod) في المجلد الخامس من Encyclopaedia Of Religion & Ethies.

والمؤرخ توينبي يقول :

« إن نظرة المؤرخ لا تصادم الفكرة القائلة بأن الله قد أوحى إلى الإنسان لمساعدته على الخلاص الروحي حيث ان هـذه الهداية كانت مستحيلة للإنسان بجهوده المباشرة . ولكن المؤرخ يشك في تصعيد هذه القضية الأساسية المقبولة إلى حد الادعاء بأن الله قد أوحى إلى شخص معيَّن وحياً خاصاً ونهائياً ... إن المؤرخ يرى في قضيـة : « أن الله يوحي إلى مخلوقاته » آثارَ مؤامرات شيطانية حيث انـه ليست هناك صلة لزوم منطقية بين أصل الإلهام وبين الإلهام الخاص ، أي [ليس هناك من دليل للادعاء] بـ أنني « أنا » ذلـك الشخص الذي اختصه الله بالإلهام من بين جميع النـاس وأن إلهامي خاص ونهائي [1] » .

إنني أقول بايجاز إن الخطأ الأساسي يكمن في ذلـك « التصور » عن الوحي والالهام الذي اخترعه المؤرخ مقياساً لأحكامه ، ولولا هذا التصور الخاطىء لعرف المؤرخ أن العلاقة بين الوحي والوحي الخاص منطقيـة وحتمية لدرجة أنه لا يمكن التفريق بينهما على الاطلاق .

إن هؤلاء المفكرين المحدثـين يدّعون أن الوحي والإلهام شيء من نوع الصورة الجميلة التي تكون في مخيلة الفنان أو الشعر الرائع الذي يكون في وجدان الشاعر . و (الله) عند هؤلاء ليس له وجودٌ حقيقي (أو على الأقل: وجودٌ متحكم في مصيرنا) حتى يصطفي أحداً — بمحض إرادته ومرضاته — ليوصل إلى الناس عن طريقه أحكامه وليعرفهم كذلك بحقيقة الحياة . و(الله)

---

(١) المصدر السابق ، ص ١٣٢ .

عند هؤلاء لا يعدو أن يكون مجرد حقيقة خارجية مجهولة تحيط بالكون وتلقي بظلالها على بعض النفوس المرهفة بدون سابق تدبير أو تخطيط وبدون هدف محدد . وبعض هؤلاء المفكرين ينكرون حتى مجرد هذا التصور فالوحي والإلهام عند هؤلاء ليسا سوى « صوت » اللاشعور .

ومن الواضح أن هناك بوناً شاسعاً بين الحقيقة التي يؤمن بها الدين وبين تصورات هؤلاء السوفسطائيين الجدد . فكيف لنا أن نأمل أن يتمكن هؤلاء المفكرون المزعومون حتى من فهم تصور « الوحي » الديني ؟!

رابعاً : يتحول « الدين » في ضوء هذا التفسير إلى « **ضرورة دنيوية** » في حين أنه في أصله : « **ضرورة أخــــروية** » ؛ **أي أن الدين من الوجهة الدينية الخالصة ، ليس إلا لهداية البشر نحو طريق النجاة في الحياة القادمة ولكن (الدين)في ضوء هذا التفسير الجديد يصبح عملاً لا وظيفة له سوى تهيئة أساس مناسب لتنظيم الحيـاة الاجتماعية الدنيوية . فالدين هنا عقيـدة مفترضة وليس حقيقة واقعية :**

« إن العقيدة الدينية ليست إلا تنظيماً فكرياً عملياً يتم على أساسه بناء وحدة الهدف والعمل بين مؤمنين بدين معيّن » !

« Indeed a dogma is only workable thought arrangement on which could be built a unity of purpose and practice among the believers of a particular religion. » (Hindustan Times, Oct. 1961)

خامساً : ومن الجدير بالذكر في ختام هذه المناقشة أن نقول بأن اليهودية الرائجة لها دخل كبير في ترويج هذه النظرة نحو « الدين » بصفة عامـــة . **وهذه اليهودية لا تمت إلى تعاليم النبيّ موسى بالقدر الذي تنتمي به إلى تعاليم أتباعه المنحرفين .**

ويتحدث توينبي في هذا الصدد ، أي عن (**ادعاء اليهود بأنهم شعب الله المختار**) فيقول :

« إنه لمن الصعب في حقيقة الأمر أن نتصور أن (الله الذي تحكم إرادته كل النظام الكوني سيقوم بهذه الحركة الخيالية .. إنه لأبعد شيء عن القياس أن نتصور أن الله يختارني « أنا » وشعبي « أنا » ويجعلني أنا « نبيّه المحبوب » ويجعل قبيلتي « قبيلته المحبوبة » . إن أي تصور من هذا النوع أقرب للوهم منه إلى الحقيقة ، وهو تصور خلَقَه الإنسانُ وثبَّتَه في ذهنه بنفسه [1] . »

إنها فكرة باطلة أساساً أن تعتبر مجموعة ما نفسها محبوبة لله أو مختارةً لديه بسبب انتمائها إلى نسل معيَّن أو شخص معيَّن . والعقيدة اليهودية القائلة بأن اليهود هم (شعب الله المختار) هي التي جعلت توينبي يطلق هذا الحكم العام على كل الأديان ، ولكنه تصوير باطل للدين ، ولا علاقة له بالتصور الديني الصحيح . **فالحقيقة أن الشعب المحبوب والمختار لدى الله هو ذلك الذي يتبع وحيه وأحكامه بصرف النظر عن انتماءاته القبلية أو الاجتماعية أو الجغرافية .**

إن هذا التفسير السابق للدين لا يعني –من وجهة نظر الدين نفسه– إلا إنكار الدين بالرغم من الاعتراف به في وقت واحد !!

إن ديناً لا يترتب عليه العقاب والثواب ، ولا يعدو أن يكون سوى مشروع شخصيّ لانسان ما،ولا تكون له علاقة بالآخرين اللهم إلا مكتشفه

---

(١) A Historian's Approach To Religion, p 135.

الأصلي ، ولا يوحي به الله الحي بمحض إرادته وسابق تدبيره ، وإنما يكون – فقط – مجرد معجزة من معجزات العقل والشعور الانساني – إن أي دين هذه صفاته من حقه أن يندرج تحت « لا إله إلا الانسان » ، ولكن لا مكان له تحت « لا إله إلا الله* » !!

إن تسمية فكر واهٍ من هذا النوع بـ « الدين »إذا كان المراد به تضليل الناس بهذا الاسم الرائج ذي الرصيد الضخم فهو ليس أكثر من السذاجة ، أما إذا كان المراد به هو المغالطة العلمية فانه ليس إلا مجرد خدعة ونفاق .

---

* إن إصرار هؤلاء على استعمال كلمة « الدين » على الرغم من عدم وجود « الدين » بمعناه الحقيقي هزيمة داخلية تشهد للدين الحقيقي ، وتدين الملحدين الواضحين ، وهؤلاء الملحدين الجدد المراجع

الفصل التاسع

حول الاشتراكية والدين

« ولا فرق بين عشاق الاشتراكية وبين متدينينا في هذه الناحية سوى أن أحدهم أصرّ على وضع قضيته في إطار المصطلحات المادية ، بينما أصرّ الآخر على تدبيج دعواه بالمصطلحات الدينية ، دون أن يكون ثمة باعث حقيقي يدعو إلى اتخاذ ذلك الموقف » .

يميل الاعتقاد السائد إلى أن كلا من الاشتراكية والدين نقيض للآخر. وهو مفهوم سديد بالنسبة إلى الاشتراكية الرائجة وإلى تاريخها المعروف . ولكننا نعتقد أن الاشتراكية في أصلها وحقيقتها شيء مختلف تماماً بغض النظر عن الرواج والتاريخ . **فالحقيقة أن صراع الدين مع الاشتراكية ومع مفاهيم جديدة أخرى هو حصاد لصدام الاشتراكية مع المسيحية الغربية . وقد ورثت الأديان الأخرى ذلك الصراع من حيث لا تشعر هي بحقيقته .**

إن صدام الدين والفكر الحديث خلال القرنين الاخيرين حول كثير من الأشياء والمفاهيم يرجع إلى عدم فهم أصحاب الدين لحقيقة التغيرات الجديدة ، ومن ثم فقد ذهبوا يحاربون كل ما هو جديد ناعتين إياه بالبدعة والضلال . ومن جانب آخر أخطأ رجال الفكر الحديث خطأ فاحشاً حين زعموا أن الدين هو ما يعرضه عليهم مندوبو الدين الجامدون في أوروبا فذهبوا يحاربون الدين والإله بدلاً من أن يحاربوا رجال الدين التقليديين ومفاهيمهم الفاسدة .

إن « قانون التعليل » الذي طرحه العلم الحديث بعد اكتشافات نيوتن

---

* إن هذا المقال الذي نلحقه بالطبعة العربية لم يشمله الكتاب الأصلي ، وإنما ترجمناه عن (الجمعية الاسبوعية عدد ٢ أبريل ١٩٧١ لاتصاله الوثيق بموضوع الكتاب ، وللمؤلف في هذا الشأن كتابان : (الاسلام والاشتراكية) و (الماركسية التي رفضها التاريخ) ونرجو أن نتمكن بإذن الله من ترجمة هذا الأخير قريباً – المترجم .

أنكره رجال الدين بدعوى أنه نفيٌ لقدرة الإله فأصبحوا بذلك أعداء ذلك الكشف العلمي . وبهذه الطريقة رفض أهل الدين فكرة «الارتقاء والتطور» التي عرضها داروين (*) لشرح أنواع الحياة ، واعتبروها بمثابـة « تخلٍّ عن الخالق » .

لقد استغلّ معارضو الدين هذا الاتجاه فأثاروا طوفاناً غير عادي في دنيا العلم ، قلمـــا يوجد له نظير فكان من نتيجته أن أصبح من الصعب على هؤلاء العلماء الذين آمنوا بقانون التعليل نتيجة مشاهداتهم العلمية أو أولئك الذين انتهوا إلى وجوب الاستعانة بنظرية الارتقاء لتفسير الظاهرة الحياتية صار من الصعب على هؤلاء وأولئك أن يظلّوا متمسكين بحقية ذلـــك الدين الذي يناقض كشوفهم العلمية دون حجة علمية .

إن هذا التمثيل الباطل للدين —من جانب الذين أعطوا أنفسهم حق تمثيله— خلق صراعاً بين العلم والدين ، بينما كان من الممكن جداً تفادي ذلك الصراع. وأنا أقول « التمثيل الباطل » لأنه لم يكن لنفي أو إثبات قانون التعليل أو نظرية الارتقاء أية علاقة بالدين البتة ، بـل كان من الواجب على رجال الدين — بدلاً من إصدار الفتاوى — أن يدرسوا هذه الأفكار الجديدة لكي يتأكدوا بأنفسهم : هل ثمة وجود لحقائق علمية تطالبنا بقبول هذه الأفكار ؟!

إن التعليل أو الارتقاء لا علاقة لهما البتة بوجود الله أو بعدم وجوده لأنهما

---

* إن المؤلف شخصياً لا يقول بهذه النظرية (كما سنذكر فيما بعد) لكن منهجه الذي يريد جذب المسلمين إليه هو الرد على النظريات العلميـة بالعلم نفسه . وليس بمجرد دعوي تصادمها مـع الدين .. وهكذا فعل هو في كل دراساته وبخاصة الاسلام يتحدى ، وكتابنا هـذا والماركسية التي رفضها التاريخ وغيرها — المراجع .

لا يتعلقان إلا بالأسلوب الذي يتخذه الله تعالى في كونه . **ولو تسنّى لنا أن نُثبت قطعية هذه النظريات ، فلن يكون لذلك الاثبات إلا دلالة واحدة . هي أن أسلوب الله تعالى في العمل وتسيير الكون يعتمد على أنه سبحانــــه ينشىء الوقائع بواسطة أسباب وعلل مقررة ، وأنـــه لم يخلق الانسان أو المخلوقات الأخرى مرة واحدة وعلى حدة، بل أنشأها واحدةً بعد أخرى.** وليكن واضحاً أنني أعتبر نظرية الارتقاء خاطئة تماماً . وليس مبعث هــذا الرفض أن هذه النظرية تصادم الدين؛ وإنما لأننا نفتقد — حتى الآن — أدلّةً أو كشوفاً علمية حقيقية تثبت صحة هذه النظرية التي يقوم أكبر أساس لهــا [الارتقاء العضوي] على مجرد افتراض [١] .

وبهذا الأسلوب الخاطىء واجه رجالُ الدين الاشتراكية والشيوعية أيضاً: وليس لنـــا أن ننسى أن الاشتراكية أو الشيوعية ليستا نتاج عقل (كارل ماركس) وحده ، وإنما يوجد على ظهر هذه النظرية مفكرون كثيرون سبقوا (ماركس) في طرح مبادئها . فعندما دخلت أوروبا عصر الثورة الصناعية ، وبدأت دائرة المال تنكمش في أيدٍ محدودة ، أظهر كثير من المفكرين آراء عديدة تطالب بوضع وسائل الإنتاج في أيـدي الدولة أي مندوبي الشعب . وكانوا يحتجون بأنه إذا تجمعت الثروات في أيدي بعض أفراد المجتمع بسبب احتكارهم وسائل الإنتاج ، فإنهم لن يتورعوا عن استغلالها لتدعيم مصالحهم . ولذلك اقترح هؤلاء المفكرون وضع وسائل الإنتاج في أيدي الدولة ؛ وحيث ان الدولة تنوب عن الشعب فالشعب هو المالك . ولذلك سميت هذه الأفكار

---

(١) قد مر في الفصول الأولى من هذا الكتاب مناقشة وافية لنظرية الارتقـاء ، وقد تناول المؤلف هذه القضية في كتابه (الاسلام يتحدى) وبخاصة أهم جوانب هـــذه النظرية ، وهو : (الارتقاء العضوي) الذي يعتبر أساس نظرية الارتقاء ولا يزال دون دليل وبرهان — المترجم

بالاشتراكية – بمعنى « الاجتماعية » – أو **بالتأميم** بمعنى جعل وسائل الإنتاج ملكية قومية .

وقد سبق كارل ماركس (١٨١٨ – ١٨٨٣) وفريدريك إنجلس (١٨٢٠ – ١٨٩٥) مفكرون اشتراكيون كبار ، نذكر منهم :

بابيوف Babeuf (١٧٦٤ – ١٧٩٧) .

وسانت سيمون Saint Simon (١٧٦٠ – ١٨٢٥) .

وفورييه Fourier (١٧٧٢ – ١٨٣٧) .

وروبرت أووين Owen (١٧٧١ – ١٨٥٨) .

وقد تصدت طبقة الرأسماليين لأفكار هؤلاء الفلاسفة بطبيعة الحال ، إلا أن ممثلي الدين أيضاً عارضوها بشدة ، لأن الملكية الفردية كانت عقيدة مقدسة عندهم ، بحيث لا يمكن للفكر الديني التقليدي التخلي عنها .

وكان المفكرون الاقتصاديون ينددون بقسوة نظام الملكية الفردية الذي أصبح في عصر الثورة الصناعية نظاماً وحشياً بربرياً ؛ وكان هؤلاء المفكرون يرون أن رجال الدين (*) يساندون هذا النظام الوحشي بشدة . وهذا الموقف

---

* يرد كثيراً هنا مصطلح « رجال الدين » ، واستعمال هذا المصطلح – حين يتعلق الأمر بتاريخ الكنيسة وبالخصائص التي عرف بها رجالها – جائز ومشروع .. أما في الإسلام ، وعلى امتداد قرون طويلة من تاريخه ، فلم يكن لهذا المصطلح وجود ، بل كانت كلمة « العلماء » أو « الفقهاء » هي المصطلح المعبر فعلاً عن واقع هذه الطبقة التي لم تكن تشكل طبقة بالمعنى العصري لهذا المصطلح ، ثم ظهرت فعلاً – للأسف – ومنذ قرون الاضمحلال الأخيرة طبقة تعيش على الإسلام – مع خلاف بينها وبين رجال الكنيسة بالطبع – لكنها مع ذلك أصبحت – في معظمها – تشكل عبئاً ثقيلاً ترزح تحت نيره قضية الإسلام في الأرض(المراجع).

قــد خلق في نفوسهم بغضاً شديداً لكل من الرأسمالية والدين .. فذهبوا إلى حد الاعتقاد بأن الدين « **شرٌ اجتماعي** » — شأنه شأن الرأسمالية — وأن كليهما نتاج لنظام واحد باطل .

وهـــذا البغض من جانب المفكرين الاقتصاديين تطور إلى ما يعرف بالماركسية فيما بعد . وماركس الذي يسمي نفسه بالاشتراكي العلمي ، بـــدأ يسمي أسلافه بالاشتراكيين الخياليين قائـــلاً إن أسلافه كانوا يقدمون نظرية الملكية القومية (أو الحكومية) كنظام اقتصادي ، ولكنهم لم يتمكنوا من تقديم إجابـــة فكرية حول الأسباب التي تجعل من النظم المعادية للاشتراكية نظماً باطلة . وذهب ماركس لأبعد مدى من المغالاة حين اختلق نظرية مضادة عن الكون لم تتسع للرأسمالية والدين . لقـد قاده بغضه وحقده النفسي إلى حد إعلانه أن ما يقوله هو ليس نظرية من وضعه ، وإنما هو اكتشاف لحقيقة خارجية ، وهي أن « الحتمية التاريخية » تحتم فناء الرأسمالية والنظم الدينية والأخلاقية الموالية لها ، ثم يتبع ذلك حلول نظام الملكية الشعبية محل تلك النظم . وهذه الإضافة من ماركس إلى الاشتراكية ، والتي يعتبرها هو واقعاً علمياً ، لم تكن إلا جنوناً فكرياً احتضنه الاشتراكيون الجـــدد من أتباعه بنفس الحرارة التي قدمه بهـا كارل ماركس ؛ إلا أن ذلك الكابوس قد خفّ ضغطه كثيراً بعـد تجربة نصف القرن الماضي . **وبالرغم من أن الانسان الاشتراكي اليوم لم يتمكن من انتشال نفسه من هيكل الفكر الماركسي القديم ، إلا أن نهر الجنون الفكري يسوده الهدوء الآن** . لقد اعترفوا الآن بصرف النظر عن درجة ذلك الاعتراف بـــأن تحويل الاشتراكية إلى فلسفة كونية — بدلاً من استبقائها كمجرد برنامج إصلاح اقتصادي — كان عملاً باطلاً .

لقد جعلتْ هـــذه التجربةُ الطويلة العالمَ الاشتراكي ينقسم على نفسه إلى

قسمين : ماركسيين ، واشتراكيين . فأما الماركسيون فلا يزالون يصرون على نفس المضامين الفكرية التي قدمها ماركس لاشتراكيته، والتي شرحها من بعده لينين . وأما الاشتراكيون فيعتبرون ذلك لغواً ، ويطالبون بـألا تتعدى الاشتراكية حدودها الطبيعية باعتبارها نظاماً للإصلاح الاقتصادي . ولم يبق في عـالم اليوم من يلتزم بحرفية الاشتراكية الماركسية إلا زعماء الصين الذين يمنعهم « سور الصين العظيم » من أن يتفهموا ما يجري خارج حدودهم ؛ وأما روسيا فقد خطت خطوات هامة بعيداً عن الماركسية القديمة. والاشتراكيون الآخرون الذين لا يدورون في فلك الصين أو روسيا ، قـد أفاقوا تماماً من كابوس الماركسية كما ذكرنا آنفاً .

إنك إذا عارضت نظرية الارتقاء أو الاشتراكية على أسس علمية ، فإن الفريق الآخر قد يعتبرك مخطئاً في حالة عدم اقتناعه بأدلتك . **أما إذا جعلت خلافك معه قضية مقدسة ، فـان هذا الفريق المعارض سوف يرفض الدين نفسه** . ولسوء الحظ فإن هذا هو الموقف الذي نواجهه اليوم .

(إنني أعتقد شخصياً أن « النظام التعاوني » أصلح نظام اقتصادي يقوم مقام الاشتراكية ؛ وقد قدّمت اليابان مثالاً ناجحاً لهـذا النظام في العصر الحاضر) .

إن معظم الاشتراكيين قبـل ماركس كانوا يستقون أسسهم الأيديولوجية من مبادىء الدين الأخلاقية ، وكانوا يقولون إن رضا الله لا يتحقق في العصر الجديد إلا بالسير في طريق الاشتراكية لأن الله لا يحب الاستغلال الاقتصادي ، والاشتراكية هي التي تقضي على هـذا الاستغلال . لقد استعملوا مصطلح **« الانفرادية الاقتصادية »** Economic Individualism لأول مرة سنة ١٨٢٦ وقالوا إن الاشتراكية هي الحل لهذه الانفرادية الاستغلالية .

إن الخلاف الأساسي بين الدين والاشتراكية يبدأ مع ظهور ماركس الذي وضع نظرياته على أساس التفسير المادي للتاريخ ، ذلـــك التفسير المناقض للتفسير الديني بصورة سافرة . على أن الخلاف الحقيقي بين الدين والاشتراكية قد احتدّ بسبب ادعاء ماركس وإنجيلس أنهما قد جعلا الاشتراكية «علمية» بمعنى أن اشتراكيتهما سوف تقبل كل ما يثبته العلم، فلو أن العلم تبنّى —مثلاً— فرضاً مادياً لتفسير الكون والحياة، فإن الاشتراكية سوف تقبله دون مناقشة ولو قال العلم بنظرية « الحتمية الأخلاقية » Moral Determinism ، فإن الاشتراكيين كذلك سوف يتهافتون عليها دون جدال .

يقول ستانلي ميلور Stanley A. Mellor محرر مـادة « الاشتراكية » في دائرة معارف الدين والأخلاق ، في السطور الأخيرة من مقاله :

« إن أساس الاشتراكية في جميع صورها يتركز في شيئين :

« أولاً : إنهاء السيطرة الفردية على وسائل الإنتاج » .

« ثانياً : البحث عن أساس أخلاقي يبرّر هذا العمل » .

ثم يستطرد المحرر قائلاً :

« إن جميع الأشياء الأخرى في الاشتراكية ، سواء كانت مؤيدة أو معارضة ، لا تزيد عن كونها أشياء ثانوية وصدفية ؛ وهي إلى حدٍّ كبير غير ذات موضوع بالنسبة للشيئين الآنفي الذكر » .

[التشديد مضاف]

إن الذين يعطون أنفسهم حق تمثيل الدين في العصر الحاضر قد ارتكبوا أخطاء فاحشة ، ومن أهم هذه الأخطاء أنهم لم يبذلوا جهوداً جادة ومخلصة لفهم نوعية القضايا الجديدة ، ولكنهم قـــد اعتقدوا — فقط — أن من

حقوقهم السماوية أن يصدروا أحكامهم عن القضايا الجديدة دون أدنى تحفظ أو تثبت . وهذا العمل لم يكلفهم شيئاً، بل كان عملاً مفيداً لمصالحهم الشخصية والاجتماعية في أكثر الأحايين . وبسبب هذا الموقف لم يتمكن الزمن من التأثير في هذه الجماعات المتقوقعة . ولكن « الدين » ومستقبله على ظهر الأرض هو الذي دفع ثمن كل هذه الأخطاء . لقد نجحت هذه الجماعات المنغلقة في أن تخلق صراعاً مصطنعاً بين الدين والعلم ، وبين القديم والجديد . وقد أدى أسلوبها هذا – في النهاية – إلى صرف الأجيال الجديدة عن الدين .

ومن سوء الطالع أن أدعياء النقد عندنا لا يزالون يكررون هذا الخطأ بكل عناد دون شعور منهم بالآثار البعيدة المدى التي يخلقها في حياة البشرية إصرارهم على التفرقة بين الدين والعلم . ولكن هل هناك مَن يستجيب لتحذيراتنا هذه ؟

لقد أخطأ ماركس حين وضع نظريته على أساس التفسير المادي للتاريخ؛ ولو أن ماركس كان قد وضع نظريته على أساس « التفسير الأخلاقي » للتاريخ لما أثار كل تلك المشكلات . إن خطيئة ماركس الحقيقية هي أنه استعمل مصطلحات خاطئة لتفسير وقائع حقيقية .

إن الخطأ الذي ارتكبه ماركس عند تفسير نظريته بالمصطلحات المادية لا تزال طبقة المتدينين لدينا تكرره بصورة عكسية حتى اليوم ، أي باستخدام مصطلحات دينية لا تنطبق على الموضوعات التي تستعمل فيها .

إن العصر الذي فتح فيه ماركس عينيه على الحياة كان عصر غزو مادي، أما المناخ الذي يعيشه معارضو الاشتراكية المتدينون فيفرض عليهم وجوب

إصدار الفتاوى الدينية لتأييد أو رفض أية ظاهرة أو واقعة في المجتمع.. على حين أنه ليس من الحتم أن يكون الشيء مضاداً للدين بالضرورة ، إن لم يكن موافقاً له في ظاهره .

ولا فرق بين عشاق الاشتراكية وبين متدينينا في هذه الناحية ، سوى أن أحدهم أصرّ على وضع قضيته في إطـار المصطلحـات المادية ، بينما أصرّ الآخر على تدبيج دعواه بالمصطلحات الدينية ، دون أن يكون ثمة باعث حقيقي يدعو إلى اتخاذ ذلك الموقف .

كلمة أخيرة

الاسلام في العصر الحاضر

إن المشكلات التي يواجهها المسلمون في العصر الحاضر تتصدرها تلك المشكلة التي نسميها « **بالحضارة الحديثة** » . لقد ظهرت هذه المشكلة بكل طغيانها في منتصف القرن التاسع عشر ، وقد مرّ على ظهورها أكثر من قرن كامل حتى الآن .

ودعك من الحديث عن مواجهتنا لهذه المشكلة ، فنحن حتى الآن لم نفهم أصلها ، ولم نهتد حتى إلى الأسلوب العلمي الصحيح الذي نواجه به التحديات التي تثيرها هذه المشكلة .

إن مشكلة « الحضارة الحديثة » — من وجهة نظر الإسلام — لم تكن في الملابس الجديدة التي يرتديها إنسان هذه الحضارة . وبالتالي لم يكن السؤال المطروح : هل نلبس هذه الملابس أو لا نلبسها ؟ ولم تكن المشكلة كذلك في أثاث بيوتهم الجديد حتى نبحث في قضية تزيين بيوتنا بهذا الأثاث أو عدم

التزيين بـه . إن هذه الأسئلة وغيرها لم تكن أسئلة إسلامية أو دينية ، بل كانت أسئلة تمدنية وجغرافية (*) ، وكان يمكن البتّ في هذه الأسئلة وفقاً للظروف التمدنية والجغرافية ووفقاً للذوق العام لكل شعب وبلد .

أما التحديات التي أثارتها الحضارة الحديثة في وجه الإسلام ، وكان على المسلمين أن يردّوا عليها ، فقد انحصرت في مشكلتين :

أولاً : لقد أصبحت شعوب ما يسمى بالحضارة الحديثة – بفضل الثورة الصناعية – قويةً لدرجة أن هذه الشعوب بدأت تستعمر كل العالم الاسلامي بصورة مباشرة أو غير مباشرة .

ثانياً : إن الصدام الذي وقع في أوروبا بين الحضارة الحديثة وبين المسيحية الغربية قد اتجه خطأ إلى الالحاد . وهذا الاتجاه الخاطىء هو المسئول – وليس الحضارة الحديثة نفسها – عن كل تلك العلوم ، وعن كل مظاهر المدنية اللذين يقودان العالم إلى الثورة على الدين .. وإنه ليبدو لنا بساطة القضية أن هذه المشكلات خارجة من بطن الحضارة الحديثة نفسها !

إن الحضارة الحديثة – بمعنى « الحضارة الصناعية » – كانت اكتشافاً لعصرها ، وكان يجب الاستفادة بها وفق الظروف في كل بلد . ولكن تلك الحضارة التي تفوقت بها شعوبها لدرجة استعمار العالم الإسلامي كله ، والتي تحوّل صدامها مع المسيحية : إلى الإلحاد ... كانت هذه الحضارة

(*) كلمة « جغرافية » تعني اختلاف المكان الذي يؤثر في اختلاف العادات والتقاليد والأذواق (المراجع) .

الحديثة تحديــا سياسياً وفكرياً للإسلام ، وكان من الواجب التصدي لهذا التحدي ذوداً عن عين كياننا وديننا .

ولكن العالم الاسلامي أخفق في كل شيء حتى في إثبات أنــه يعي جوهر التحدي الذي أثارته الحضارة الحديثة ، ولذلك لم نتمكن – نحن المسلمين – من الاستفادة الحقــة من الحضارة الحديثة ، ولم نستطع أن نقــدم الرد الصحيح على التحدي الذي يمسّنا في صميم مصيرنا ، ويمسّ مستقبل الدين نفسه على الأرض .

BIBLIOGRAPHY الكتب التي أشير إليها في الكتاب

Bertrand Russell,

1. My philosophical Development
2. Human Knowledge
3. Our Knowledge Of The External World
4. The Problem Of Philosophy
5. Why I am not a Christian ?
6. T. R. Miles, Religion & The Scientific Outlook
7. Science Of Life
8. Philosophers Of Science
9. G. G. Simpson, Meaning of Evolution
10. A. E. Mander, Clearer Thinking
11. R. S. Lull, Organic Evolution
12. Encyclopaedia Britanica (1958)
13. Haldane & Huxley, Animal Biology
14. Lunn, Revolt Against Reason
15. Chamber's Encyclopaedia (1874)
16. Nature & Science Speak about God
17. J. Huxley, Religion Without Revelation
18. John Wilson, Philosophy and Religion
19. J. W. N. Sullivan, The Limitations of Science
20. Eddington, The Domain of Physical Science
21. Morton White, The Age of Analysis

22. Sir games geans, The Mysterious Universe
23. A. N. Gilkes, Faith for Modern Man
24. Alexis Carrel, Man The Unknown
25. C. M. Joad, Modern Wickedness
26. Le Comte Du Noay, Human Destiry
27. Hindustan Times
28. C. A. Coulson, Science & Christian Belief
29. Man in the Modern World
30. Freud, New Introductory Lectures on Psycho - analysis
31. Human Personality and its Survival of Bodily Death
32. A. Philosophical Scrutiny of Religion
33. Religion, PhilosoPhy and psychical Research
34. Toynbee, An Historian's Approach to Religion
35. Eneyclopaedia of The social sciences (1957)
36. Eneyclopaedia of Religion & Ethics

مُحتويَات الكتاب

الموضوع	الصفحة

صدر عن دار النفائس للمؤلف

- الاسلام والعصر الحديث

من منشورات «دار النفائس»

● تاريخ فلسطين القديم	ظفر الاسلام خان
● أحجار على رقعة الشطرنج	وليام غاي كار
● لورنس العرب على خطى هرتزل	زهدي الفاتح
● حكومة العالم الخفية	شيريب سبيرودوفيتش
● التلمود (تاريخه وتعاليمه)	ظفر لاسلام خان
● التوراة (تاريخها وغاياتها)	سهيل ديب
● التوراة بين الوثنية والتوحيد	سهيل ديب

من منشورات «دار النفائس»

- موطأ الإمام مالك ، رواية يحيى بن يحيى الليثي .
- مسند عبد الله بن عمر، تحقيق أحمد راتب عرموش .
- الفضل المبين على عقد الجوهر الثمين . تأليف الشيخ جمال الدين القاسمي .
- موعظة المؤمنين من احياء علوم الدين ، تحقيق عاصم بهجة البيطار .
- مختصر سيرة ابن هشام ، إعداد وتحقيق عفيف الزعبي وعبد الحميد الأحدب .
- الفوائد ، لابن قيم الجوزية ، تحقيق أحمد راتب عرموش .
- الإنصاف في بيان أسباب الاختلاف ، ولي الله الدهلوي .
- مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة ، د . محمد حميد الله .
- تاريخ الدولة العلية العثمانية ، لمحمد فريد ، تحقيق د . احسان حقي .
- الفتنة ووقعة الجمل ، رواية سيف بن عمر . تحقيق أحمد راتب عرموش .

هذا الكتاب

يتصدى المؤلف المفكر الهندي الكبير « وحيد الدين خان » في هذا الكتاب المهم لمعظم المدارس الإلحادية التي راجت في القرون الثلاثة الماضية ، إبتداء من التفسير الميكانيكي ، والماركسية ، والداروينية ، والدين الإنساني ، إلى برتراندرسل ، وكاريل ، وهكسلي ، وتوينبي واخرين .

والمؤلف رئيس تحرير « الجمعية الأسبوعية » ، اكبر المجلات الإسلامية في الهند ، وأوسعها انتشارا .

وهو مؤسس مدرسة إسلامية فكرية جديدة ، تؤمن (بوجوب مواجهة التحديات التي يواجهها الإسلام والمسلمون بنفس المصطلحات والوسائل - والأساليب التي يستخدمها الأعداء ، وبوجوب إيجاد فكر إسلامي عصري متكامل ، ونبذ الحزبية تماما في المرحلة الراهنة ، والتركيز على تعليم الشعوب الإسلامية وتصنيع البلاد الإسلامية وتقوية اقتصادياتها كتمهيد لا بد منه لأية نهضة إسلامية ناجحة) .

ولقد ترجم له الى العربية « الإسلام يتحدى » الذي أجمع العلماء والناقدون على أنه كان أحسن كتاب إسلامي ظهر في السنوات الاخيرة .

